أرض المعاد

وبعد أن نخرج من هذه الأرض التي كنا نعيش عليها نساق إلى أرض المعاد.

ذلك لأن هذه الأرض معدة للحياة الدنيا حتى لحظة البعث.. مدخر فيها أقوات البشر وأرزاقهم.. والحياة فيها تمضي بالأسباب ولكن المسبب والخالق قيوم على هذه الأسباب.. لا يترك كونه لحظة.. ولا يغفل عنه، ولو برهة صغيرة.. وهو إذا شاء، ومتى شاء، عطل الأسباب لتتدخل قدرة المسبب لتنصر مظلوماً على ظالم.. أو تقتص لضعيف بغى عليه من قوى طغى بالأسباب، وأفسد فى الكون.

أرض الأسباب هذه انتهت مهمتها.. ولذلك فهي تدمر.. والبشر يساقون إلى أرض المعاد التي يتم عليها الحساب؛ لأنه فى الحياة الآخرة تنتفى الأسباب، ولا تصبح الأرض التي نعيش عليها صالحة ليوم الحساب، وما بعد يوم الحساب.

إذن.. فالناس تخرج من أرض الأسباب إلى أرض المعاد.. ولكن هل يخرجون هكذا؟ كل منهم يذهب حيث يريد، ويتجه إلى أي مكان يريده.. أم أن المسألة لها نظام محكم دقيق معد بحيث يكون كل شيء في موضعه تماما.. إن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فإذا كانت هذه الأرض ستتبدل بأرض جديدة وكذلك السماوات، فهل سنمضي كل يذهب باختياره إلى المكان الذي يريده وعلى هواه، هذا يتأخر وهذا يتقدم وهذا يذهب يمينا؛ وذلك يذهب يسارا، وبعضنا يجري إلى الخلف هروبا من هذا الموقف الرهيب وآخرون يزاحمون من الصفوف الخلفية ليصلوا إلى الصفوف الأمامية، هل سيحدث هذا؟ لا.

لقد قلنا إن الموت معناه انتهاء إرادة الإنسان.. انتهاء الاختيار.. فلا أحد يملك أن يختار لنفسه شيئاً، ولا أحد يملك أن يفعل أو لا يفعل حسب هواه.. فهذا الاختيار كان ممنوحاً للبشر فى الحياة الدنيا كامتحان لهذا اليوم.. والآن انتهى الامتحان.. وأصبح كل إنسان يحمل أعماله التي أطاع فيها منهج الله، والتي عصى فيها هذا المنهج.. وبدأت أولى خطوات الطريق إلى الحساب.. لم يعد يملك من أمره شيئا.. تأمل دقة القرآن الكريم، وهو يصف لنا كيف سننتقل من هذه الأرض التي نعيش عليها إلى أرض المعاد.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

تأمل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: لن يفلت أحد.. كل قادم من

عهد آدم إلى يوم القيامة؛ ولكن ليس كل قادم باختياره ومشيئته.. بل كل نفس معها سائق.

ما هو السائق؟ السائق فى اللغة هو الذي يسوق الغنم إلى المرعى، وهو الحريص على أن تسير الغنم فى الطريق المرسوم إلى مكان الماء أو العشب.. فلا تتجه يمينا أو يسارا.. بل هي ذاهبة إلى مكان محدد لها، حيث يوجد العشب أو الماء.. والسائق يسوقها أمامه حتى يوصلها إلى هذا المكان.. ولماذا يسوقها أمامه؟ لماذا لا يجرها خلفه؟ أو لماذا لا يأتي بواحدة أو اثنتين من هذا القطيع فيسوقهما والكل يتبعه؛ لأنه لو فعل ذلك وجعلها خلفه.. يمكن لواحدة منها أن تنحرف يمينا أو يسارا، أو تبتعد عن الطريق، بدون أن يدرك هو ذلك.. ولكنها حين تكون أمامه إذا انحرفت أي واحدة منه يمينا أو يسارا؛ فإنه يجري ويعيدها إلى الطريق المرسوم.

وهذا التشبيه الذي أعطاه لنا القرآن الكريم جملة.. هو الذي سيحدث يوم القيامة تفصيلا.. فعندما ينفخ فى الصور، ونخرج من القبور.. سيكون لكل واحد منا سائق ينتظره.. ذلك السائق من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وهذا الملك مكلف بأن يسوق الإنسان من مكان الحشر على هذه الأرض التي نعيش فيها إلى مكانه المحدد له في أرض المعاد حيث سيتم الحساب، وهذا الملك يكون خلف الإنسان، تماما كما يكون سائق الأغنام خلفها.. والإنسان لا يغيب عن الملك المكلف به ولو لحظة؛ ولو برهة.. بل يسوقه الملك وهو أمامه حتى مكانه في أرض المعاد.. ويكون حريصا عليه لا يستطيع الإنسان أن ينحرف يمينا أو يسارا. فإذا انحرف قام الملك بتصحيح مساره.

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

أي ليس معها فقط سائق يوصلها إلى المكان المحدد لها في أرض المعاد.. بل معها أيضاً الشهيد، وهو أعمالها.. شريط حياتها وما فعلته فى الدنيا لحظة لحظة.. حتى أن الحق سبحانه وتعالى يعطينا لمحة عن دقة الحساب.

يقول تبارك وتعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦].

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

كيف سيكون الناس.. أحوال كثيرة.. ومشاهد كثيرة مختلفة أعطاها لنا القرآن الكريم.

وانظر إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾ [الحج].

هذا تصوير دقيق للحالة التي سيكون عليها الناس يوم البعث وقبل الحساب، وهم يساقون من الأرض التي نعيش عليها وبعثنا منها إلى أرض المعاد؛ عقولهم من هول الموقف ستكون ضائعة، فالأم التي هي فى الحياة الدنيا أحرص الناس على ابنها، تتابعه أينما كان وتلحظه أينما وجد، وبخاصة إذا كان رضيعا صغيرا، هذه الأم ستذهل عن ابنها.. يكون أمامها فلا تراه.. ويناديها فلا تجيبه.. ويقترب منها فلا تحس به.. ذهول تام من هول الموقف.

فالناس في يوم الحساب كل واحد منهم مشغول بنفسه، يفكر في ذاته ولا يدور في فكره أي شيء آخر؛ إنه يريد أن ينجو من هذا الهول العظيم يريد أن يطمئن إلى مصيره، وقد أصبحت القيامة حقيقة واقعة أمامه يراها بعينه ويتابع أحداثها بنفسه بعد أن كانت غيبا عنه، اللحظة التي يفيق فيها الإنسان ويعرف أن يوم القيامة قد جاء وأن ساعة الحشر قد بدأت، يذهب عن عقله كل ما كان فيه، ولا يفكر إلا في نفسه؛ إنه يوم كما وصفه الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧].

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾. أي: أن المرأة التي تعتز فى الحياة الدنيا بجنينها، تتخلص منه فهي لا يشغلها إلا نفسها، وعندما يساق الناس إلى أرض المعاد لا يمشون بخطى ثابتة لا يكونون ثابتين في مشيهم وفي تقدمهم، بل من الرعب الذي يجتاح القلوب يترنحون يمينا ويسارا كالسكارى حتى إنك إذا نظرت إليهم تعتقد أنهم قد فقدوا اتزانهم من الخمر؛ ولكنهم حقيقة لم يتناولوا قطرة واحدة منها؛ ولكن هول الموقف الذي هم فيه، وشدة عذاب الله الذي يخشون أن يصيبهم يجعلهم كالسكارى لا يستطيعون أن يحفظوا توازنهم، ويترنحون في مشيتهم.

يزيد الصورة وضوحا قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝ ﴾ [عبس].

إذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى هذا.. فإنك تعرف أنه سيكون هناك نداء وتناءٍ بين الناس في هذا الموقف.. هذا ينادي هذا بحكم قرابة الدنيا وبحكم الصلات التي كانت بينهم في حياتهم قبل الموت.. ولكن الأنساب هنا تختفي.. فلا يصبح كل واحد متلهفا إلى تحية أو سلام أو لقاء - رغم أنهم لفترة طويلة - كل واحد منهم يقول نفسي نفسي، فإذا ناداه أو حاول أن يحتمي به مثلا أحد من أقاربه فإنه يتركه ولا يرد عليه.. بل يفر منه فإذا ظن الابن مثلاً أنه يمكن أن يستنجد بأبيه الصالح في هذا اليوم.. فإن هذا الأب لن يلتفت إليه ولن يستمع إلى كلامه.. ولن تشفع القرابة بين الاثنين.. لأن القرابة والألفة والأنساب تنفع فى الحياة الدنيا.. فيتجه الإنسان إلى أبيه أو أبنائه لينصروه في ساعة الشدة، ويقفوا معه في ساعات العسرة.. وهم في دنيا الأسباب يفعلون ذلك.

ولكن في هذا اليوم كل واحد منهم مشغول بنفسه عن الآخرين يريد أن يهرب من

أولئك الذين قد يصيبهم العذاب من الله، لا يريد أن يتعلق به أحد، ولا أن يحمل من أوزار أحد، فيبتعد قدر الإمكان عن الناس كل الناس متمنيا أن ينجيه الله من العذاب.

هكذا يساق الناس إلى أرض المعاد، وهم يترنحون من هول الموقف.. مشيتهم غير متزنة وخطواتهم غير ثابتة.. وكل من له عمل صالح يريد أن يهرب ممن لهم أعمال سوء.. ينادونه فلا يرد عليهم.. ويستنجدون به فلا ينجدهم.. ويظنون أن قرابته لهم أو صداقته لهم ستشفع لهم في ذلك اليوم.. ولكنه لا يلتفت إليهم.. لقد كانت هناك مظنة أنه سيعاونهم.. وترى أولئك الذين تجمعوا على حب الدنيا.. وتجمعوا على معصية الله.. يفرون من بعضهم البعض وهم أعداء ألداء، صداقتهم فى الدنيا قد تلاشت تماماً.. وكيف لا وكل منهم قد ساعد الآخر على أن يكون من أهل النار.. كل الناس في هذا الموقف أعداء إلا المتقين.. لماذا لا يكون المتقون أعداء لبعضهم البعض في ذلك اليوم.. لأن المتقين كانوا يتعاونون على الخير.. إذ رأى واحد منهم زميله يمشي فى الخير وطاعة الله، يقول له عليك أن تكثر.. وإذا رأى أحدهم صديقه يمشي في طريق الشر والمعصية يقف أمامه وينصحه حتى يعود إلى طريق الخير.

لقد كان المتقون يتعاونون على الخير فوقوا أنفسهم عذاب النار.. كل واحد منهم نصح الآخر.. والنصيحة كانت نافعة لينجو من العذاب في هذا اليوم العظيم.. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وهكذا تظهر الصورة الأولى ليوم البعث.. المؤمنون في هذا اليوم لهم نور يمشون به وسط ظلمات هذا اليوم العظيم.. والمنافقون يحاولون أن يتقربوا من المؤمنين بأن ينادوا عليهم.. أو يطلبوا منهم أن يشفعوا لهم، أو يكونوا لهم عوناً.. ولكن هذا كله لا يفيد.. لقد تقطعت الأسباب، وأصبح كل إنسان مشغولاً بنفسه.

وتكتمل الصورة في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣].

وفي هذه الآية الكريمة يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى.. ففي يوم الحشر والناس في طريقهم إلى أرض المعاد.. من كثرة عدد الناس وشدة الزحام تسود الظلمة.. فلا يرى الناس ما أمامهم.. الله سبحانه وتعالى يضيء للمؤمنين نورا يمشون على هداه.

وحين يرى المنافقون ذلك النور.. يحاولون أن يقتربوا من المؤمنين ليستعينوا بهذا النور على السير، بدون التخبط الذي يفرضه الظلام.. حينئذ يقال لهم ارجعوا فيعدون بعيدا عن المؤمنين.. ثم يكون بينهم سور أو ما يشبه السور أو حاجز.. هذا الحاجز من ناحية المؤمنين فيه رحمة الله سبحانه وتعالى بما عملوا من صالح الأعمال.. فيحسون بالرحمة تحيط بهم من كل مكان.. بينما من الناحية الأخرى.. ناحية المنافقين

والمنافقات.. يكون هذا السور محاطا بعذاب الله، حيث يحسون بالعذاب يحيط بهم.. وهكذا يمشي الاثنان.. المؤمن تحيط به رحمة الله ونوره.. والكافر والمنافق يحيط بهما عذاب الله.. وحينئذ يعرف الكفار والمنافقون الفرق، يحسون بأن العذاب يحيطهم.. بينما الرحمة تحيط بالمؤمنين.

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤].

حينئذ عندما يحس الكفار والمنافقون بالفارق الكبير بين العذاب الذي يحيط بهم.. والرحمة التي تحيط بالمؤمنين.. ينادي الكفار والمنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم فى الحياة الدنيا.. ألم نعش معا في وقت واحد.

فيرد عليهم المؤمنون.. نعم لقد عشنا في وقت واحد.. ولكنكم أيها الكافرون والمنافقون فتنتم أنفسكم بما تقدمه الدنيا من نعم زائفة.. وكنتم تتربصون بعباد الله المؤمنين.. لتؤذوهم وتدبروا لهم الشر.. ودخلت في أنفسكم الريبة من أنكم ملاقو الله.. فظننتم أنكم لن تلاقوه.. وأنكم ستفلتون من هذا اليوم.. وجاءت شياطين الإنس والجن لتقدم لكم الأماني الزائفة.. عما ستحققونه فى الدنيا، فأصابكم الغرور بهذه الأماني.. وتكبرتم وتجبرتم حتى جاء أجلكم، وجاء أمر الله، وجاء يوم الحساب.. فوجدتم أن ما وعدكم الله حق.. وأن غرور الشيطان باطل.. فاليوم لا ينفعكم شيء ولا ينجيكم من عذاب الله أحد.

obeikandl.com

الميزان.. وبياض وجوه وسواد أخرى

تحدثنا فيما سبق عن بعض المشاهد التي ستحدث يوم القيامة.. والناس يساقون إلى الحساب.. على أن هناك مشاهد أكثر ساعة يوضع الميزان ويحاسب الناس.. يومها يفضح الله الكافرين أمام كل خلقه.. ويحدث حوار كبير يشهده الخلق جميعاً.

ولكن قبل أن نتعرض لهذه المشاهد.. لابد أن نتحدث عن معنى الميزان الذي يحاسب الناس على أساسه فى الآخرة.. كيف تزيد الحسنات على السيئات.. أو كيف تزيد السيئات على الحسنات.. وكيف يحمل الناس أوزارهم أو ذنوبهم يوم القيامة.

يوم الحشر يكون للناس أحوال مختلفة.. فلكل واحد منهم درجة من الدرجات.. الله سبحانه وتعالى يعرض لنا عددا من هذه المواقف في القرآن الكريم.. ليرينا كيف ستكون أحوال العباد المختلفة.. فلا المؤمنون على درجة واحدة، ولا الكافرون على درجة واحدة.. ولكن لكل منا درجة.. ولكل منا حال من الأحوال.. هناك الذين كذبوا على الله.. وهناك الذين أشركوا بالله.. وهناك الذين عبدوا غير الله.. وهناك الذين أضلوا الناس.. وهناك صور عديدة ومتعددة.. كل في صورة.. كل في شأن.

يوم الحشر.. هذا يريد أن يفر، وهذا يتمنى أن يكون ترابا، وهذا يريد أن يعود ليعمل صالحا ولو عاد لأفسد، والناس حين تساق إلى أرض المعاد يعطينا الله لأحوالها صورا مختلفة فى القرآن الكريم.. لأن الناس في هذا اليوم العظيم لا يمكن أن يكونوا في حالة واحدة ولكنهم في أحوال متعددة.. وفي أول أيام الحشر هم في حال.. وفي آخره هم في حال.. لقطات كثيرة. وكل واحد من الناس له حالة تناسب عمله.. له حال مع الله سبحانه وتعالى يناسب ما قدمه فى الدنيا.. فكل نفس بشرية لها عمل.. خيرا كان أو شرا فهو متفاوت.. الخير متفاوت والشر متفاوت.

ولنستعرض معا بعض هذه الصور التي ستحدث يوم القيامة، هناك وجوه ستكون سوداء، ووجوه ستكون بيضاء، مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

هل البياض أو السواد يتعلق باللون.. أم يتعلق بالحالة؟

إنك في كثير من الأحيان ترى إنساناً إذا أصابه هم، وبلغ حالة اليأس يقول لك: لقد اسودت الدنيا في وجهي.. هل الدنيا اسودت حقا وأصبح لونها أسود.. إن الدنيا كما هي؟ ولكن ما ينتظر هذا الإنسان من الهم والغم قد جعلها تبدو سوداء في نظره، بحيث لا يرى فيه أملا، ولا يرى شعاع النور.

وهناك إنسان آخر ترى وجهه فتقول: إن وجهه أسود كأن غضب الله نزل عليه.. مع أنه لونه في الحقيقة.. لون وجهه يكون أبيض، وليس أسود.. ولكنك تحس من الهَمّ الذي يركبه والآثام التي يحملها أن وجهه أسود حالك السواد.

وكم من إنسان يكون وجهه أسود اللون فعلا وتراه مشرقا بالإيمان متلألئا بالنور.. تستبشر به وتقول أن وجهه مشرق.

إذن.. فاللون هنا ليس هو المحل.. ولا يستطيع إنسان أن يقول: إن الله سبحانه وتعالى قد مدح الوجوه البيضاء في الدنيا، وذم الوجوه السوداء، وشبه بهم الكافرين بأن وجوههم سوداء.

نقول لك لا.. إن عدل الله يأبى هذا ولا فرق بين عباد الله جميعا.. بل إن أهل جهنم في الآخرة قد يكون معظمهم ممن يحملون وجوهاً بيضاء في الدنيا وأعمالهم يملؤها السواد.

إذن.. فالسواد هنا معناه أنك إذا نظرت لهذه الوجوه بِغَضّ النظر عن لونها، فإنك ترى سحاب السواد يحيط بها.. تراها وقد غاب عنها الإشراق.. تبدو دميمة كالحة تحس أن كل ما حولها أسود.. فعملها أسود، وحسابها أسود، ومصيرها أسود، ولا أمل لها ولا فيها.

موكب الحشر يمضي، وهم يومئذ على صور مختلفة.. إنهم يمشون جماعات.. المؤمنون جماعات، والكافرون جماعات.. وكل جماعة في شأن.. جماعة من أصحاب الوجوه السوداء الواحد منهم يقول: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر: ٢٤].

قد ملأهم الندم وأحسوا بعظم ما اقترفوا.. وجماعة أخرى من أصحاب الوجوه السوداء هم الذين كذبوا على الله: ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ ﴾ [الزمر: ٦٠].

﴿ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا ﴾ [يونس: ٢٧].

وجماعة يتمنون أن تسوى بهم الأرض: ﴿ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [النساء: ٤٢].

يوم القيامة.. والبراءة من الشرك

تأتي بعد ذلك المواجهة مع الشمس والقمر والنجوم والأصنام.. فتبرأ جميعا ممن عبدها من البشر. وفى وذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٦].

وهكذا تقف كل هذه المخلوقات لتعلن أمام الله سبحانه وتعالى.. أنهم لا علم لهم بمن اتخذوهم آلهة.. وأنهم لم يدعوا أحدا لاتخاذهم آلهة.. ولذلك فعندما يخاطب الله سبحانه وتعالى الأحجار التي اتخذوا منها أصناماً.. تقول الأحجار عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين فى الأسحار.. ذلك أن هذه الأحجار تسبح بحمد الله.. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

بعض الناس يتساءل.. هل ستتحدث الأحجار يوم القيامة؟.. وهل ستنطق؟.. نقول لهم إن كل شيء سينطق يوم القيامة.. تسألوننا كيف سينطق؟.. وبأي لغة سيتكلم؟.. ولكنها ستكون بلغة تفهمونها جميعاً.. فإذا كان الإنسان سيفهم لغة العين والسمع والجلود ويعاتب أعضاء جسمه فيقول لهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١].

ومعنى ذلك أنهم فهموا كلامهم.. وإلا لما قالوا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾.. فترد الجلود والأسماع والأبصار: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

إذن.. هناك حوار سيدور بين الإنسان وسمعه وبصره وجلده في لغة يفهمها الإنسان وتفهمها هذه الأعضاء كلها.. وإلا فإنه لا يمكن أن يدور حوار إلا بين اثنين يتكلمان لغة مشتركة.

فلو أننا أتينا برجل إنجليزي لا يعرف كلمة واحدة من اللغة العربية.. ورجل عربي لا يفهم كلمة واحدة من اللغة الإنجليزية.. هل يمكن أن يدور بينهما حوار؟.. طبعاً لا.. ولكن لابد أن تكون هناك لغة مشتركة، وسيعلمنا الله سبحانه وتعالى يوم القيامة لغة كل أجناس الأرض.. ولغة كل مخلوقاتها التي نراها والتي لا نراها حتى يدور بيننا الحوار على أوسع مدى.. فنحن سنكلم الملائكة ونراهم ويروننا.. ونحن سنرى إبليس وذريته.. ويدور بينه وبين الكافرين حوار.. وكل شيء سيتكلم وينطق.. كل شيء كان صامتا في هذه الدنيا سيتكلم.. وسينطق وسيشهد.. حتى الأشياء التي سخرها الله لإرادة الإنسان وجعلها خاضعة لهذه الإرادة فى الدنيا كاللسان مثلا الذي جعله الله صالحاً لأن يقول كلمة الإيمان وأن يقول كلمة الكفر والعياذ بالله.. فإذا أمر الإنسان لسانه أن ينطق كلمة الكفر أطاعه ونطقها.. ولكن هذا اللسان عابد وطائع ومسبح.. ولذلك يأتي يوم

القيامة ويشهد على صاحبه.. بأنه أجبره على نطق كلمة الكفر بما جعله الله مسخرا لإرادة الإنسان.

ولكن عندما تخمد الإرادة البشرية.. يشهد كل شيء على الإنسان.. ولا يملك الإنسان أن يقهر عضوا من أعضائه.. على أن يفعل ما يغضب الله.. بل كل هذه الأعضاء تشهد على الكافر وتلعنه.. ولذلك فإن الحجارة التي هي أعبد لله من كثير من البشر.. ستشهد على من عبدوها يوم القيامة وتتبرأ منه وكذلك الشمس والقمر والنجوم.. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٦٦].

فإذا انتقلنا إلى البشر، وعلى قمتهم الرسل.. يأتي الله سبحانه وتعالى بعيسى ابن مريم: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: ١١٦].

وهكذا يتبرأ الرسل من الذين عبدوهم من دون الله. ويجد أولئك الذين أشركوا بالله أنفسهم في موقف حقير جدا، فهؤلاء الذين عبدوهم وقدموا لهم القرابين، وأتعبوا أنفسهم في إقامة التماثيل من الذهب والفضة والمعادن النفيسة.. هؤلاء الذين أمضى المشركون حياتهم يتقربون إليهم يبتعدون عنهم.. لأنهم رجس.. ولأنهم عمل غير صالح لابد أن يبتعد عنه الناس جميعاً في هذا اليوم العظيم.. ويحس أولئك المشركون بتفاهتهم وعظم ذنبهم.. ويتمنون لو أنهم سويت بهم الأرض، أو كانوا ترابا.. بدلا من أن يقفوا هذا الموقف المخزي أمام الله سبحانه وتعالى.

ثم يأتي الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى شياطين الجن والإنس.. إلى إبليس الذي قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

إلى إبليس الذي أعلن من يوم الخلق الأول أنه سيكون عدوا لآدم وذريته.. واستطاع أن يصل إلى ذلك بالقسم الذي يمكنه أن يفعل ما يقول.. فقال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.. أي يا ربي نشهد أن لك العزة.. وعزة الله عن خلقه جعلته غنيا عنهم: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

فبهذه العزة التي استغنى بها الله سبحانه وتعالى عن خلقه.. تدخل إبليس ليأخذ حق الغواية.. ولذلك فقد قال: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣].

إذن.. فكل من عبد الله مخلصاً وقاه الله غواية إبليس.. ولم يستطع أن يقدر عليه.. وكل من عبد الله وفي قلبه شك أو رياء أو نفاق فإن غواية الشيطان تدخل إلى نفسه.. فيزين له المعصية.. وإبليس يعرف ناحية الضعف في الإنسان فيغويه منها.

فإن كان الإنسان ضعيفاً أمام المال أغواه إبليس بالمال.. وإن كان الإنسان ضعيفاً

أمام النساء أغواه إبليس بالنساء.. وإن كان الإنسان ضعيفا أمام الجاه والسلطة أغواه إبليس بالجاه والسلطان.

إذن.. فقد بقى الحوار والمخاصمة بين إبليس وذريته.. وبين ذرية آدم.. معزولاً عنها هؤلاء الذين أخلصوا العبودية لله.. فهؤلاء ليسوا طرفاً فى الخصومة.. لأن الله وقاهم ما يمكن إبليس وذريته من أن يغووهم.. فلم يعصوا ولم يشركوا ولم يكفروا.. وإنما عبدوا الله وأخلصوا له الدين. يجمع الله إبليس وذريته.. وهم الفاسقون من الجن.. لأن هناك الجن الصالحين المؤمنين.. وهناك الجن الظالمون الفاسقون.. فالجن الذين يتبعون إبليس في إغواء الإنسان وفي إفساد منهج الله فى الأرض.. هؤلاء هم الذين يسمون الشياطين، ولابد أن نعرف أن الجن هم مقابل الإنس ولهم اختيار.. وأنه كما يوجد فى الإنس طائع وعاص.. كذلك يوجد فى الجن.. العاصون هم الشياطين الذين يخدمون فكرة إبليس في إغواء الإنسان بالكفر.. ويوجد من الإنس من أغواهم الشياطين، فأصبحوا في خدمتهم يفسدون منهج الله.. وهؤلاء هم شياطين الإنس.

إذن.. فالحوار بين من ومن؟ أيكون الحوار بين الذين عبدوا ولم يعرفوا شيئا عن ذلك، أم يكون بين شياطين الإنس وشياطين الجن الذين خالفوا المنهج.. قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأنعام: ٢٢].

ويشمل كل مخلوقاته: الملائكة والأحجار والكواكب والرسل وشياطين الجن والإنس؛ والخطاب فى القرآن موجه للأحياء.. الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا اذكروا جيداً وأنتم فى الدنيا أنكم ستحشرون حشرا إلى موقف تفضحون فيه أمام كل مخلوقات الله: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [الأنعام: ٢٢].

إذن.. فالكلام هنا: ونقول للذين أشركوا من الإنس والجن مكانكم.. وحين تسمع إنسانا يقول لك مكانك.. يعني لا تتحرك حتى ينتهي هذا الموقف ويحسم.. وهي كلمة وعيد.. كلمة تهديد من الله سبحانه وتعالى.. ومعناها لا تتحركوا فإن لي معكم موقفاً وهذا الموقف ليس في صالحكم، فالذين أشركوا يحسبون أنهم قد ضاعوا في زحام الآخرة.. وأنهم أفلتوا من المواجهة.. ومن الفضيحة أمام خلق الله.. والله سبحانه وتعالى يقول لهم: ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٢٨]. أي: كل الذين اجتمعوا على باطل يجمعون معا.. ولكن الله سبحانه وتعالى لا يريدهم في معسكر واحد، إنه يريد الذين أغووهم في معسكر الذين قاموا بالغواية والإضلال في معسكر.. والذين خضعوا لهذه الغواية في معسكر آخر.. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٢٨].

أي: فرقنا بينهم.. حتى يصبح هناك فريق يواجه فريقاً: ﴿ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾ [يونس: ٢٨].

هنا لابد لنا من وقفة.. إذا كان هذا الحوار أو جزء من الحوار الذي يدور فى

الآخرة.. فهل هذا هو الميزان؟.. وهل هذا هو الحساب؟.. أم أن الحساب هو شيء مختلف تماماً عن كل هذه المشاهد.. بحيث هناك هذه المشاهد وحدها، ثم بعد ذلك يكون الحساب.

قبل أن نبدأ الإجابة عن هذا السؤال.. لابد أن نرد على الفكرة التي تقول: إن هناك ميزانا منصوباً فى الآخرة.. توضع فيه السيئات في كفة، والحسنات في كفة.. فمن ثقلت حسناته وأعماله الصالحة يذهب إلى الجنة.. ومن زادت سيئاته على حسناته يذهب إلى النار.

فكرة ماديات الدنيا هذه لا يمكن أن تكون فى الآخرة.. ليست المسألة أوراقا مكتوبة بشكل مادي.. وإنما فكرة الميزان هي فكرة العدل في أساسه. بل هي دقة متناهية فى العدل الذي لا يقوم شيء بدونه.. لقد سُئل علي بن أبي طالب كيف سيحاسب اللّه الناس في وقت واحد يوم القيامة... قال علي رضي اللّه عنه كما يرزقهم في وقت واحد فى الحياة الدنيا.. اللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٧].

أي: ميزان العدل.

وأنت تدخل إلى دار القضاء مثلاً ترى رسما للميزان موضوعا فى المكان الذي يجلس فيه القاضي.. هل القاضي يأتي بميزان مادي ليحكم القضايا.. أم أن هناك ميزاناً في كل نفس وضعه اللّه لتفرق أنت به بين الحق والباطل.

حينما تجد إنسانا في تفكير عميق.. فإذا سألته لماذا هو صامت.. قال لك إنه يزن الأمور قبل أن يتكلم.. هل جاء بميزان مادي أم أن الميزان داخل نفسه.. يضع هذه الحقيقة هنا.. ويضع هذه الحقيقة هنا، ويزن كل شيء بعقله.. وهل إذا جار عليك إنسان، وأخذ منك حقوقك، وقلت له: إن كفة الميزان مالت ناحيتك.. أيكون هناك ميزان مادي.. إن الميزان فى الدنيا معناه الحق.. معناه التفريق بين الحق والباطل.. معناه العدل في كل شيء العقل يستطيع أن يعرف جيدا في كل أمر من أمور الدنيا.. إذا كانت كفة الميزان معتدلة أو مائلة.. اللّه وضع فينا فطرة الإيمان.. ومع فطرة الإيمان فهمنا فكرة الميزان لنفرق بين الحق والباطل.. ولا يستطيع إنسان أن يمضي فى الحياة، بدون أن يكون هناك ميزان في نفسه.. يزن الأمور حتى بعيدا عن الدين.. وهذا الميزان في عقل كل منا وفي تكوينه.

الإنسان عندما يبعث يوم القيامة يكون معه سائق وشهيد.. السائق عرفناه.. هو الملك المكلف به لكي يوصله إلى المكان المحدد له، فلا يذهب يميناً أو يسارا.. وإنما يسوقه أمامه والناس يوم القيامة تذهب جماعات. جماعات من المؤمنين.. وجماعات من غير المؤمنين أما الشهيد الذي مع الإنسان فهو عمله يشهد عليه.. اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤].

والنفس هي التقاء الروح بالجسد.. وهذا يحدث مرتين: مرة فى الحياة الدنيا دار الاختبار ومرة فى الحياة الأخرى لينعم الإنسان أو يعذب.. ومادام التنعيم والتعذيب لم يأت وقتهما بعد.. فإن الحديث هنا عن الحياة الدنيا.. في قوله تعالى: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾.

كيف تكون النفس شهيدة على صاحبها.. تكون بأنها تحمل كتابا فيه كل ما حدث فى الحياة الدنيا مسجلا بالصوت والصورة.

بعض الناس قد يتعجبون من هذا الكلام.. ولكننا كما قلنا الله سبحانه وتعالى رحمة بعقولنا قد أعطانا من الماديات فى الدنيا ما يسهل لهذه العقول أن تعي شيئا عن الغيبيات، فكما تحدثنا كيف أن الوجود شيء، وإدراك الوجود شيء آخر، وأثبتنا ذلك بالدليل العلمي حتى إذا حدثنا الله سبحانه وتعالى أن هناك شيئا موجودا، ونحن لا نراه.. لا نقول: إن هذه قضية مستحيلة؛ ولكننا نقول: إنها قضية ممكنة وقائمة وعليها دليل، وإذا كانت قدرة الإنسان قد أثبتت أن ما هو غيب موجود، فما بالك بقدرة الله سبحانه وتعالى.

فلنستجمع قليلا ما نراه اليوم. ألا تدير الراديو فتستمع إلى صوت الشيخ محمد رفعت يؤذن للصلاة.. أين هو الشيخ محمد رفعت.. غير موجود الآن.. لقد مات منذ سنوات طويلة.. ولكن صوته مازال موجوداً.. استطاع الإنسان بالعلم الذي كشفه الله له أن يبقى الصوت فى الكون، بينما صاحبه انتقل إلى رحمة الله.. بل إن الأبحاث العلمية الحديثة قد أثبتت أن الأصوات لا تفنى.. بل سابحة فى الفضاء.. وهناك جهود علمية لم تكلل بنجاح تحاول أن تسجل أصوات الأنبياء والعظماء الذين مازال التاريخ يذكرهم من بين بلايين الأصوات السابحة فى الفضاء.. ولكن للدقة المتناهية التي يحتاج إليها مثل هذا العمل.. وللعلم الواسع الذي لابد أن يستند إليه.. لم يكشف الله سبحانه وتعالى من علمه للبشر ما يمكنهم من ذلك.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى التليفزيون.. فإننا نجد برامج تذاع حدثت في عام ١٩٣٠ وقبل عام ١٩٣٠.. ونرى فيها الأشخاص الذين قاموا بهذه الأحداث، وهم يتكلمون ويتحركون وكأنهم أحياء.. مع أنهم انتقلوا من عالمنا من سنوات.. ولو احتفظنا بهذه الأفلام لاستطعنا أن نعرض هذه الأحداث بعد مئات السنين.. بل إن المعارك التي دارت فى الحرب العالمية نستطيع أن نراها وكأنها تحدث الآن.

إذا أردنا أن نجري تجربة وقلنا: إننا سنسجل حياة فلان بالصوت والصورة منذ ساعة مولده حتى ساعة مماته.. ألا نستطيع؟.. طبعاً نستطيع.. ثم بعد ذلك أخذنا هذا التسجيل، واحتفظنا به مائة سنة، ثم عرضناه.. ألا نرى تاريخا كاملا لحياة هذا الإنسان.. إذا كانت هناك الآن آلات بالغة فى الدقة تخطئها العين، ولا تحس بها.. تسجل لنا بالصوت والصورة وتستخدمها المخابرات فى العالم.. ألا يستطيع الله سبحانه

وتعالى أن يضع في ذرات هذا الكون ما يتم به ذلك؟.. وهل الملائكة التي تكتب الحسنات والسيئات وتحصيها.. وتكتب على الإنسان كل أعماله.. تحصي هذه الأعمال وتسجلها على الإنسان بشكل يجعل الكافر وغير المؤمن.. يستطيع أن ينكرها بدون أن يكون هناك دليل قوي يدحضه ويفحمه إذا حاول أن يكذب على الله.

إن من دقة الكتاب الذي سيحمله الإنسان معه يوم الحساب.. أن المجرمين سيقولون: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩]

أي: أنه إحصاء غاية فى الدقة.. حتى الأشياء التافهة التي نسيها الإنسان.. والأشياء الصغيرة سيجدها في كتابه.. مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: ٦].

ولكن ما هو الدليل الدامغ يوم القيامة.. لأن يكون الإنسان شهيدا على نفسه إلا أنه يرى كل حياته أمامه.. كفيلم سينمائي سجل كل شيء. فإذا أنكر أي شيء فإنه يواجه بما كان يفعل بالدليل الدامغ.. إذا كانت قدرة الإنسان في تسجيل الأحداث قد وصلت إلى هذا الحد المذهل، فما هي قدرة الله سبحانه وتعالى.. وقول الحق: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤].

معناه أن كل إنسان ستشهد عليه نفسه بكل ما حدث ولن يستطيع أن ينكر شيئاً.. لأنه سيرى كل شيء.. لعل الله سبحانه وتعالى وهو قادر على أن يرينا حياتنا كلها لحظة بلحظة في ساعة الحساب.. أليس هذا ممكنا؟.

إذن.. ففيم المجادلة؟.. وهل قدرة الملائكة أقل من قدرة الإنسان بحيث تستطيع أية قوة من قوى التجسس فى الدول المتقدمة، أو حتى المتخلفة.. أن تسجل الأحداث التي تقع وتواجهه بها.. ولا تستطيع الملائكة الحفظة الأبرار أن تقوم بأكثر من هذا.. إن مجرد النقاش في أن هذا ممكن أن يحدث يرفضه العقل.

ونحن حين نمثل ما سيحدث يوم القيامة بالإمكانيات المادية الموجودة فى الدنيا.. فإنما نحاول أن نقرب ذلك من الأذهان.. ولكن الله الذي ليس كمثله شيء.. لن يجعلنا نرى كتابنا بهذه الطريقة البدائية.. بل في علمه أشياء وأشياء.. والمهم أن الإنسان سيرى كل ما فعله.. وسيشهد ويسمع كل كلمة قالها.. حتى يكون هو الشهيد على نفسه.. ويكون عدل الله تعالى وأفعاله فلا يستطيع أن ينطق.

حينما يواجه الإنسان بكتابه لا يستطيع أن ينكر.. ولا أن يقول لم أفعل ولا أن يجادل في أنه ظلم.. بل كلنا يوم القيامة سنشهد بعدل الله.. حتى الذين سيخلدون في نار جهنم سيشهدون أن عقابهم حق.. وأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم.. وأن الله لم يظلمهم.. قد يطلبون الرحمة.. قد يطلبون فرصة أخرى.. ولكنهم لا يمكن أن يدعوا

مهما كان الكبر في صدورهم أنهم ظلموا في يوم الحساب.. وهذا ما سنبينه فى الفصول القادمة.. ونحن نتحدث عن مشاهد يوم القيامة.

إذن.. مشاهد يوم القيامة كما قلنا متعددة.. ولا يمكن حصرها في كتاب واحد.. ولكنا هنا نأتي ببعض اللقطات التي تقرب الصورة لأذهاننا فيما سيحدث يوم القيامة.. ولقد تحدثنا فى الصفحات السابقة عن المشركين الذين اتخذوا آلهة من الشمس والقمر والنجوم والأحجار والبشر.. وقلنا: إنه في يوم القيامة سيحشر الله هؤلاء جميعا.. فهناك منهم من عبده الناس، وهو لا يدري عن عبادتهم شيئا.. فالشمس والقمر والنجوم والأحجار والأشجار وغيرها لم يطلبوا من أحد أن يعبدهم.. بل هم أعبد لله من القائمين فى الأسحار، وهم لم يرسلوا رسلا إلى البشر ليقولوا لهم اعبدونا أو ليبلغوهم بمنهج عبادة.. فالشمس لم ترسل رسولا مثلا إلى من عبدوها لتدعي أنها إله.. وتطلب منهم أن يسجدوا لها وتقول لهم: إن منهجي كذا وكذا.. وكذلك النجوم والأحجار التي اتخذوا منها أصناما.

لذلك فإن هؤلاء جميعا يتبرأون يوم القيامة من أولئك الذين اتبعوهم.. ويتجهون لله سبحانه وتعالى يسبحونه.. بل إن الأحجار التي عبدها الناس يجعلها الله سبحانه وتعالى وقود النار يوم القيامة.. وتكون الأحجار سعيدة بذلك، وهي تحرق من عبدها من دون الله وتذيقه العذاب.

كما أن هناك من الرسل من اتخذه الناس إلها.. يؤتى بهم يوم القيامة ليتبرأوا أمام الأشهاد.. أمام خلق الله كلهم.. من الذين اتبعوا واتخذوهم آلهة وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى لعيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦].

بماذا يرد عيسى ابن مريم؟ يقول: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ [المائدة: ١١٦].

أي: تعاليت يا رب وتنزهت عن هذا.. فنحن جميعاً عبيدك نسبح بحمدك.. ثم يكمل عيسى ابن مريم عليه السلام كلامه: ﴿ ... إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ... ۝ ﴾ [المائدة].

وهكذا يتبرأ عيسى عليه السلام من أولئك الذين اتخذوه إلهاً ويقول إن الله سبحانه وتعالى يعلم ما نعلن وما نخفي.. فإن كان عيسى عليه السلام قد قال هذا علناً، فقد علمه الله سبحانه وتعالى.. وإن كان قد قاله سرا وفي نفسه فقد علمه الله سبحانه وتعالى أيضا، لأنه يعلم ما تخفى الصدور.. ويكون هذا على مشهد من جميع خلق الله منذ عهد آدم إلى يوم القيامة.. وهم يشاهدون كل ما يحدث ويتابعونه لتكون الفضيحة علناً وأمام كل خلق الله.

والله قادر على أن يجعل خلقه جميعا يرون كل ما يحدث دونما عناء أو تعب.. كما ترى الدنيا كلها الشمس دونما عناء أو تعب.. وكما يرى الناس اليوم باستخدام قوانين الله التي وضعها الله سبحانه وتعالى فى الكون ليروا جميعا في وقت واحد، وفي ملايين الأماكن المتفرقة حدثا يقع فى العالم في لحظة وقوعه نفسها عن طريق الأقمار الصناعية.. وإذا كانت هذه قدرة البشر الآن.. فما هي قدرة البشر بعد آلاف السنين في نقل الأحداث بالصوت والصورة إلى كل أجزاء الدنيا.. ثم بعد ذلك ما هي قدرة الله سبحانه وتعالى فى الآخرة؟

بقى المشهد الذي يتم بين الذين عبدوا غير الله عن علم وعن قصد.. وهم شياطين الجن والأنس.. أولئك الذين أفسدوا فى الأرض.. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

والله سبحانه وتعالى يخاطب الجن.. أو يخاطب شياطين الجن فيقول لهم لقد أخذتم نصيبا كبيرا من الإنس إلى جهتكم.. فأضللتموهم وقدمتموهم إلى طريق الفساد.. والله سبحانه وتعالى حين يخاطب الجن ويقول لهم استكثرتم من الإنس والجن لا يردون.. ولكن من الذي يتكلم؟ الذي يتكلم هم الإنس الذي اتبعوا شياطين الجن.. يقولون: ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم ﴾ أي: المتابعون لهم من شياطين الإنس: ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

إذن.. فالكلام هنا من الإنس عن أنفسهم، وأيضاً عن أوليائهم من الجن - إنهم يدافعون عن شياطينهم من الجن الذين أخذوا كثيرا من الإنس إلى جانبهم.. كيف ذلك؟.. لأن الله سبحانه وتعالى أعطى الجن في تكوينهم مالم يعطه للإنسان من ناحية التكوين.. فجعل الجن يرون الإنس، بينما الإنس لا يرونهم.. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وأعطى الله الجن أيضا قوة أكثر من الإنس.. ولذلك طلب سليمان من يحضر له عرش بلقيس ملكة سبأ قبل أن تصل إليه.. ومعنى هذا أن سليمان قال هذا الطلب بعد أن غادرت بلقيس ومن معها اليمن في طريقهم إلى بيت المقدس.. وكان في مجلس سليمان الإنس والجن وغيرهم.. لم يتكلم إنسي واحد ليقول: إنه يستطيع أن يحضر عرش بلقيس لماذا؟.. لأن الإنس مخلوق من طين.. إمكانيته محدودة، فهو لا يستطيع أن يقوم بهذه المهمة.. بينما الجن مخلوق من نار[1].. يستطيع أن ينفذ من الجدران والسواتر الحديدية.. وأن يسافر وينتقل من مكان إلى آخر بسرعة هائلة..

ولذلك فإن المخلوق من نار، قانونه نافذ بطبيعة تكوين النار التي تشع فيخترق

(١) روى مسلم [٢٩٩٦/ ٦٠] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

إشعاعها الجدران.. بحيث تصل حرارتها إلى من يجلس وراء الجدار.. هذه بعض قوانين الجن التي تختلف عن قوانين الإنسان.. لذلك عندما قال سليمان عليه السلام: ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣٨].

سكت الإنس الذين كانوا في مجلس سليمان، لأن نقل العرش من اليمن إلى مكان سليمان.. يحتاج إلى زمن وإلى قوة وإلى سرعة، وهذه لا تتوافر في الإنس بحكم خلقهم ولذلك كان أول من تكلم هو عفريت من الجن.. أما الإنسان فلم يدخل نفسه في تجربة يعلم أنه لا يستطيعها.. فسليمان قد علم أن ملكة سبأ في طريقها إليه لتعلن إسلامها.. وهو يريد من الذي يذهب ليأتي بالعرش من قصر ملكة سبأ.. أن يتميز أولاً بالسرعة التي تتفوق على الإنسان بمراحل كثيرة.. لأن هذا الذي سيذهب جالس مع سليمان.. بينما ملكة سبأ في طريقها إلى سليمان.. ولذلك فلابد أن يقطع المسافة من مكان سليمان إلى قصر ملكة سبأ.. ثم يحمل العرش.. ثم يحمله ويكون حريصاً عليه.. ثم يأتي به إلى سليمان.. كل هذا في وقت أقل من الذي ستقطع فيه بلقيس ملكة سبأ المسافة بينها وبين سليمان، وكانت قد قطعت فعلا جزءا من الطريق.

لم يتكلم الإنسان ولا الجن العادي.. وإنما تكلم عفريت من الجن.. مما يدلنا على أن الجن غير متساويين فى القدرة بل إنهم متفاوتون فيها.. والذي تكلم هو عفريت من الجن، أي: أقوى الجن.. وقال: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ [النمل: ٣٩].

ومقام سليمان أو مجلسه لا نعرف زمنه ساعة أو ساعتين أو أكثر.. ولكن العفريت الذي يتكلم يعرف الزمن.. وهنا: ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل: ٤٠].

أي قبل أن تطرف عينك.. وقبل أن يقول سليمان نعم.. وجد عرش بلقيس أمامه: ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾ [النمل: ٤٠].

أي: أن المسألة لم تتحمل حتى مجرد الكلام.. وهكذا إذا كان الله قد خص الجن بقوانين متفوقة.. فقد أعطى بشرا من خلقه قدرة أكبر تخضع الجن لها.. ذلك أن التميز ليس بالتكوين فقط، ولكن بإرادة المكون والخالق.

وهكذا يريد الحق سبحانه وتعالى، وهو يعرض علينا مشاهد القيامة، أن يقول لنا.. إنه أعطى الجن ميزات كثيرة.. وأنهم استخدموا هذه الميزات فى التكوين فى الشر والإضلال حينئذ يرد أولئك الذين اتبعوا شياطين الجن: ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

ما معنى هذا؟ هل استمتع الجن بالإنس أم استمتع الإنس بالجن؟ كلاهما استمتع بالآخر استمتع الجن بالإنس في إعانته على المعاصي.. ومادامت شياطين الجن تعين

الإنسان على المعصية فهذا استمتاع لها.. لأن العداوة بين شياطين الجن والإنس منذ لحظة خلق آدم.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦]

فكان إبليس ومن تبعه من الجن متعتهم فى الحياة أن يقودوا الإنسان للمعصية والهلاك.. تماماً كما يكون لك عدو وتدبر له مصيبة.. فإنك تستمتع وأنت تدبر له هذه المصيبة.. ثم تستمتع أكثر عندما تنفذها. ثم تستمتع أكثر وأكثر وأنت تراه يعذب.. فهذا هو استمتاع الجن بالإنس.. استمتاع ذلك الذي يوقع عدوه في مصيبة، ويقوده إلى النار.. وهو يفعل ذلك يكون في قمة السعادة والاستمتاع.. وهذه هي مهمة الشيطان.. وبذلك يتحقق قول إبليس: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦].

ولكن ماذا عن استمتاع الإنس بالجن.. لأن الجن قد زين للإنسان شهواته.. وجعل النفس البشرية التي تتبعه تستمتع بكل شهواتها وأهوائها فى الحياة الدنيا.. وذلك أن شياطين الإنس لا يعيشون بمنهج.. ولكنهم يجرون وراء شهواتهم.. فيأخذون المال الحرام.. ويعتدون على حرمات الناس.. ويفعلون كل ما تريده أنفسهم من ظلم وفساد.. وفي هذا يكون الإنس وقد اتبعوا وحي شياطين الجن قد استمتع بحياته كلها.. ففعل ما يريد دونما وازع من ضمير، أو خلق أو دين.

وهكذا يكون استمتاع الإنس بالجن.. استمتاعا عاجلا لشهوات النفس يعقبه حسرة وندم.. ولذلك فإن أولئك الذين يشتغلون بالسحر والجن يريدون أن يحققوا شهوات لأنفسهم فوق قدراتهم.. ولكنها تنقلب وبالا عليهم.. مصادقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦].

أي أتعبوهم لأن العدواة بين شياطين الجن والإنسان تجعله يقدم له العون أولاً حتى يتبعه، ثم ينقلب عليه.

والعجيب أنك تجد أولئك الذين يسخرون الجن يأخذون رزقهم من أولئك الذين لا يعلمون عن السحر شيئا.. لو كان فعلاً خيراً لاستطاعوا هم أن يرزقوا أنفسهم.. ولا تجد من يشتغل بهذه المسائل إلا وفي ذريته شذوذ.. الأعور والأعرج والأكتع.. لماذا؟ ليلزم كل إنسان أدبه وقدر ربه فيه ولا يتكبر.. تماماً كالذي يستعين بالفتوات ليسيطر على الناس ثم إذا ضعف ينقلب الحي الذي كان يسيطر عليه فيذيقه الهوان والعذاب..

﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

يعني مادمنا نحن على قيد الحياة.. فنحن مضينا في منهج الاستمتاع.. فاستمتع الجن بأنه قاد الإنسان إلى المعصية.. واستمتع الإنسان بمتعة المعصية حتى جاء الأجل.. فماذا وجدوا؟ قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

أى إن المستمتع الأول والمستمتع الثاني فى النار.

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة تكمل هذه الصورة في قوله جل جلاله: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا الصورة كاملة في يوم الحساب: شياطين الجن وشياطين الإنس قالوا إنهم استمتعوا ببعضهم البعض فى الحياة الدنيا، فقضى الله بينهم بأن النار هي مصيرهم ومثواهم.. عندما قضي الأمر التفت شياطين الإنس إلى إبليس الذي قادهم إلى هذه الهاوية.. التفتوا إليه يستنجدون به من النار التي سيقذفون فيها.. ماذا قال إبليس؟.. قال الحقيقة لأن حياة الخداع قد انتهت وقد أصبحنا في مرحلة اليقين.. لم يعد هناك ظن ولا غيب.. فقد كشف الله حجب الغيب للناس، وانتهت مهمة إبليس.. فإبليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يمهله إلى يوم البعث..

وفي ذلك يقول الحق: ﴿ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [ص: ٧٩]. أي: يا رب أعطني مهلة إلى يوم البعث قبل أن أخلد في العذاب.. ذلك أن إبليس رد الأمر على الآمر.. رد الحكم على الله.. قال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص: ٧٦]

وقال: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١].

ففي كلا الأمرين رد الأمر على الله.

وفي ذلك يجب أن نأخذ مبدأ إيمانيا هاما بالنسبة لأولئك الذين لا يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على منهج الله.. من الخير لهم أن يقولوا إن منهج الله حق ولكننا لا نستطيع أن نحمل أنفسنا على المنهج.. أما أن نرد الحكم على الله ونقول: إن الربا حلال وإن قطع يد السارق حرام.. نقول لكل من يتخذ هذا السلوك.. لا ترد الحكم على الله فتكون في صف إبليس مطرودا من رحمة الله؛ ولكن قل إن كل ما في منهج الله حق ولكني لا أستطيع أن أحمل نفسي على الإيمان، فبدلا من أن تكون كافرا إن رددت الحكم على الله.. تكون عاصيا إن أقررت بذنبك.. بخطئك.. معصية يمكن أن تستغفر منها فيغفر لك الله.. وأن تتوب منها فيتوب الله عليك.. أما أن ترد الحكم على الله فهذا كفر.

إذن.. فقد انتهت المهلة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى لإبليس، وجاء اليوم الذي يحاسب فيه ولم تعد تفيده عداوته لآدم شيئا، فلم يعد هو قادرا على غواية الإنسان ولم يعد الإنسان مستجيباً له. انتهى كل هذا لأن الحياة أصبحت غير الحياة، ولم يعد الشيطان يستطيع أن يغوي أحدا في يوم البعث، ونحن نرى النار والجنة والجزاء والحساب، فلم يعد أمام الشيطان إلا أن يقول الحق؛ لأنه لو كذب فإن كل ما هو حادث يكذبه، ولم يعد الموقف يسمح بالكذب والشيطان يرى جهنم التي سيلقى فيها ويخلد إلى الأبد، في هذا الموقف الرهيب لا يستطيع أن يقول إلا الصدق، تماماً كساعة تنفيذ حكم الإعدام على

القاتل وهو يقاد إلى المشنقة.. هل في هذه الحالة هو صالح للكذب.. إن هول الموقف يجعل لسانه لا يستطيع أن ينطق إلا الحق.. فما بالك وإبليس يواجه نار جهنم وعذاب الله.

فماذا قال الشيطان لما قُضِيَ الأمر؟

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

أي: أن الله سبحانه وتعالى كان وعده حقا، ووعد الشيطان كان كذبا.. يمني الإنسان ويغريه بالأكاذيب ليرتكب المعاصي ويزين العمل السيئ فوعده كذب، ووعده لا يتحقق.

والشيطان في هذا يظل يغري الإنسان حتى يكذب الإنسان على نفسه.. ويعتقد زيفاً أنه سيفلت من عقاب الله.. أو أن العذاب سيكون يسيرا، ثم بعد ذلك يدخل الجنة.. وعندما يأتي الإنسان ليتوب يأتي الشيطان فيقول له.. أجّل التوبة حتى تكبر فى السن، ثم بعد ذلك لا يمهل الأجل الإنسان ليكبر فى السن، وكل إنسان لديه امتداد الأمل.. بمعنى أنه لو لم يحقق ذلك اليوم فإنه سيحققه غدا.. وهناك آمال كثيرة في حياة الناس قد لا تتحقق أبدا.. ولكننا نعيش على أمل أنها ستتحقق.. ومهمة الشيطان أن يعطي للإنسان الأمل الكاذب.. الأمل الذي لن يتحقق.. فيغريه بالمعصية تلو المعصية ويهمس إليه أن الأجل لا يزال طويلاً.. ويمنيه بأنه سيفعل كذا وسيحقق كذا بالمال الحرام.. وقد يكون هذا المال نكبة عليه وعلى أولاده فيعصيه بالكوارث والأمراض، مما يجعلهم يتمنون لو أن هذا المال لم يأت.. هذه هي بعض وعود الشيطان التي تكون دائماً مخالفة للحقيقة.

ثم يقول الشيطان: ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

والسلطان هو قوة القهر.. أي: أن الشيطان ليس له قوة القهر ليقهر الإنسان على المعصية ، والسلطان إما أن يكون قوة مادية تقهر بأن أطلب من إنسان أن يذهب إلى مكان فيرفض، فأقيده بالسلاسل، وأحمله إلى هناك.. أو أن أطلب منه أن يقوم بعمل فلا يطيعني، فأحضر بعض أعواني بالعصي والسياط ويلهبون ظهره حتى يفعل ما أريده.. أو يكون السلطان هو سلطان الحجة.. حيث تأتي للإنسان وتظل تتحدث معه حتى تقنعه بأن يقوم بالعمل الذي تريده، فيقتنع اقتناعاً يجعله يفعل ما تريده منه، ولكن باختياره.. كلاهما سلطان، سواء اتبعت القهر أو اتبعت الحجة والإقناع.. والشيطان لم يعط سلطان القهر.. فهو لا يستطيع أن يقهر إنساناً على معصية بالقوة والقهر.. وليس للشيطان حجة ليقنع بها الإنسان، فيجعله يرتكب المعصية، بحجة الإقناع.. ولكن لابد أن يوجد في داخل النفس أولاً هوى ورغبة للمعصية، فيأتي الشيطان ويزينها له.. كأن يكون الإنسان يريد أن يعيش عيشة مرفهة ولكنه لا يملك المال.. وجدت الرغبة أو الشهوة في داخل النفس البشرية.. حينئذ يأتي الشيطان ليزين له المال الحرام.. ويقول: إذا سرقت هذا

المال فستحصل على عيشة الرفاهية التي تتمناها.. ويظل يوسوس لك بذلك حتى تسرق.. أو يزين لك جمال امرأة مستهترة حتى تزني معها.

إذن.. فقول الحق سبحانه وتعالى وهو ينقل إلينا الحوار الذي سيدور بين إبليس وشياطين الإنس: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]

أي: أنه لم يكن يملك سلطان القهر ولا سلطان الحجة ليجبرهم على المعصية.. ولكن شهواتهم التي في داخلهم هي التي قادتهم لهذا.. عندما يتجه شياطين الإنس إلى إبليس باللوم يقول: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]. أى إنكم لو لم يكن عندكم استجابة في داخل أنفسكم لما استطعت أن أغويكم.. فلا توجهوا لي اللوم.. بل وجهوه إلى أنفسكم.. ﴿مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

والصراخ معناه طلب النجدة من مصيبة لا يقوى الإنسان على مواجهتها بمفرده.. بل يريد أن يعينه الآخرون على أن يواجهها.. فإذا شب حريق فى البيت مثلا وكان الحريق صغيرا يمكنني أن أسيطر عليه.. فأنا لا أصرخ طالباً النجدة.. وإنما أقوم بإطفاء الحريق بإمكانياتى مادمت واثقا أنني أستطيع.. ولكن إذا كان الحريق كبيرا فإنني لا أستطيع بقدراتي أن أتغلب عليه.. فإنني في هذه الحالة أصرخ طالباً النجدة.. لأنني أواجه حدثاً أقوى من قدراتي.. فأنا محتاج إلى عون الآخرين.. وإذا هاجمني لص مثلاً فى الطريق.. فإذا كنت قويا فأنا أقدر عليه وأمسك به وأقيده.. ولكن إذا كان اللص أقوى مني.. فأنا في هذه الحالة أصرخ وأطلب النجدة حتى يعينني الناس عليه.

حين يسمع الناس الصراخ فهم نوعان.. نوع لا يجد في نفسه القدرة على أن يعين على هذا العمل، فلا يذهب إلى الصارخ لينجده.. كأن يهاجمني لص قوي وأصرخ طالباً النجدة. ويكون الذي يمر شيخ لا يكاد يقوى على السير.. حينئذ فإنه لا يجيب على صرختي، لأنه لا يستطيع أن يقدم على العون، وهو ضعيف كبير السن.. ونوع آخر يجد في نفسه القدرة على التدخل، فيأتي إلي ويساعدني في أن أتغلب على ما لا أقدر عليه.. حينئذ يقال أصرخه فلان.. أي أزال سبب صراخه.. والشيطان في يوم القيامة لا يستطيع أن يصرخ أحدا.. أي لا يستطيع أن ينقذ أحدا من النار.. ولا يستطيع أحد أن يصرخه، أي ينجيه من العذاب الذي ينتظره.. لذلك يقول الشيطان للعاصين: لا أنا أستطيع أن أنجيكم من العذاب.. ولا أنتم تستطيعون أن تنجوني من الخلود فى النار.. فكلانا عاجز أمام قدرة الله سبحانه وتعالى.

ويمضي الحق سبحانه وتعالى ليكمل لنا أحد مشاهد يوم القيامة: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

أي: ما أغويتكم على أن تشركوا بما أنا كافر به.. لأني أول من يعلم أنه زيف وكذب، ولكنكم ظلمتم أنفسكم، واتبعتم الزيف الذي قدمته لكم، فجزاء الظالمين النار.

مشهد أخر من مشاهد يوم القيامة يوضحه الحق سبحانه وتعالى وهو الحوار الذي سيدور بين الكافرين فى النار: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ [سبأ: ٣٣].

الحوار هنا بين الكافرين.. جزء منهم هم المستضعفون الذين كانوا تابعين.. وجزء منهم المستكبرون أو السادة الذين أغروا هؤلاء المستضعفين بالمعصية وفعل السيئات.. ماذا يحدث فى الحوار الذي يدور: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

أي نحن كنا نتبعكم وكنا نفعل ما تأمروننا به وننفذ كل ما تطلبونه.. فهل تستطيعون أن تنجونا من عذاب النار أو تخففوه عنا.. هذا مظهر من مظاهر العجز البشري يوم القيامة.. يرويه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم.. لنعرف أن هؤلاء الذين يغوروننا على المعصية أعجز من أن ينفعونا يوم القيامة أو يخففوا عنا يوماً من عذاب الله.

فمهما كان لهم من سلطان وقهر فى الدنيا فإن ذلك لن يغني عنهم شيئاً فى الآخرة.. ولن يعطيهم قدرة ولا قوة.. وفي ذلك نجد أن بعض الناس في دفعهم الآخرين للمعصية يقولون لهم: أفعل هذا وأنا سأحمل وزرك يوم القيامة.. أنا سأحمل عنك وزرك.. ويكون هذا الكلام دفعاً للنفس المترددة في ارتكاب المعصية أن ترتكبها.. إياكم أن تصدقوا هذا الكلام.

صحيح أن هؤلاء الذين يغرونك بالمعصية سيحملون وزرا فوق أوزارهم أو معاصيهم.. ولكنك أنت مرتكب المعصية عليك إثم، وعليك عقاب، وستحمل وزرك يوم القيامة.. ولذلك فإياك أن تصدق من يقول لك أفعل هذا والإثم على.. أو أفعل هذا وسأحمل وزرك.. بل على مشهد من أهل المحشر جميعاً.. لن يستطيع هؤلاء الذين زينوا المعصية للآخرين أن يحملوا أوزار الذين ارتكبوا المعصية.. ويكون أولئك الذين ارتكبوها بلا معصية بل هذا يحملها وهذا يحملها.. وعندما يقفون أمام الله للحساب يرينا الحق ماذا سيحدث: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١].

أي: هذا يلقي اللوم على هذا وهذا يلقي اللوم على هذا حتى تصبح الفضيحة علنية.. وترى المحبة التي كانت بينهم على الشهوات وعلى الكفر وعلى المعصية قد ذهبت وانتهت فهناك نوعان من المحبة فى الدنيا.. أناس أخذوا الحب فى الله يذهبون للمسجد معا ويتدارسون العلم معا، ويسمعون القرآن معا.. وإذا ارتكب أحدهم معصية نصحه الآخرون ومنعوه.. ومحبة أخرى بين الناس الذين يتفقون على قضاء السهرة الليلة فى الخمر والميسر عند فلان.. أو قضاء ليلة فى الإثم عند فلان.. يشجع بعضهم البعض على المعصية في مجالسهم.. هؤلاء أخلاء وهؤلاء أخلاء.. ولكن الذين اجتمعوا على الإثم والمعصية.. إذا وقفوا أمام الله هذا يلقي اللوم على ذاك.. وذاك يلقي اللوم على

الآخر.. المحبة التي كانت بينهم على الشهوات انتهت.. والله سبحانه وتعالى يقول لنا لو ترون ماذا سيتحقق في الآخرة.. أولئك الذين كانوا في الدنيا متفقين على الشر.. تجمعهم المعصية.. يتلاومون اليوم ويحاول كل منهم أن يلقي اللوم على الآخر.. ماذا يقولون؟:

﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٣١].

أي: أن المستضعفين يحاولون إلقاء اللوم على سادتهم وكبرائهم.. فيقولون لولا أنتم وغوايتكم لنا وتزيينكم للمعصية لكنا قد اتبعنا طريق الهدى وجئنا اليوم آمنين.

ماذا يقول الذين استكبروا؟.. أيوافقون على هذا الرأي؟.. طبعا لا.. في هذا الموقف العظيم يحاول كل واحد أن يبرئ نفسه: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ: ٣٢].

أي: أنتم بطبيعتكم وحبكم للشهوات كنتم تريدون الضلالة.. وكنتم تريدون المعصية.. فما إن أشرنا إليكم حتى انطلقتم إلى طريق الشهوات والمعاصي بطبعكم واتباعكم للشهوات وإلا لو كان في قلوبكم هداية ما سمعتم كلامنا واتبعتمونا.. ويرد الذين استضعفوا مرة أخرى: ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [سبأ: ٣٣]. أي: إنكم كنتم تقعدون لنا ليلا ونهارا لتزينوا لنا المعصية وتزينوا لنا الكفر، وتزينوا لنا عبادة غير الله، أنتم الذين كنتم ليلا ونهارا تأتون إلينا تعدوننا بالمال لنكفر وتعدوننا بالمكافآت لنرتكب المعاصي، وتبينون لنا ليلا ونهارا طرق الإغراء على المعصية ولا تملون أبدا حتى استجبنا لإغرائكم وعصينا. وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾ [سبأ: ٣١]؛ يعني: هذا يقول وهذا يرد عليه.. ويعود الأول إلى الكلام ويعود الثاني إلى الرد.

ومن مشاهد القيامة..
حشر الذين ظلموا مع أزواجهم

على أننا إذا انتقلنا إلى مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة.. نأتي إلى قوله الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢]. أي: أن بعض الذين ظلموا لن يحشروا وحدهم، بل ستحشر معهم زوجاتهم.. لماذا جعل الله الزوجات يُحْشَرْنَ مع أزواجهن الذين ظلموا.. بل قدم الزوجات على الشرك فقال: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات: ٢٢].

إن الزوجات متقدمات عن أولئك الذين كانوا يعبدون.. ومعنى هذا التقديم أن الزوجات متقدمات في الإغراء وفي التوجيه إلى الشر قبل الشيطان، وما كان يزينه من عبادة غير الله.

الله سبحانه وتعالى يريد أن ينبهنا في هذا إلى أن هناك في بعض الأحيان شيطاناً ملازماً للرجل في حياته، ذلك أن الشيطان متمثل في عدد من الزوجات اللاتي ينتهزن فرصة حاجة الرجل إليهن، ويمثلن عليه طريق الإثم والانحراف ليفعل ما يردن.. فإن كُنّ في حاجة إلى المال أغرينه ليسرق أو يرتشي أو يختلس.. وإن كُنّ في حاجة إلى المجون والاستهتار أغرينه ليحضر الحفلات التي تملؤها المعصية.. وإن كُنّ يردن الحياة الناعمة الرتيبة أغرينه بارتكاب المعاصي كلها.. حتى يهيئ لهن هذه الحياة.. وإن كُنّ يردن الانتقام من شخص ما أغرينه بالشر والكذب والتزوير وربما الجريمة ليصلن إلى هدفهن من شهوة الانتقام ولو بالزور والزيف.. ويطيع الزوج وينحرف ويفعل كل معصية.. يأتي الله سبحانه وتعالى ليفضح هؤلاء الزوجات يوم القيامة. وعلى مشهد من خلقه جميعاً وهم واقفون في المحشر ينظرون.. فيصدر الأمر إلى ملائكته: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝ ﴾ [الصافات].

أي: أوقفوهم في مكان محدد حيث يكونون معروفين ومميزين من وسط الخلق جميعا.. لنسألهم عما فعلوا.. فكأنما في هذه الحالة يكون الزوج والزوجة مسئولين معا عن الإثم الذي حدث.. الزوجة لها إثم وارتكبت معصية بالتحريض الذي قامت به والإغراء على الإثم الذي ظلت تطارد به زوجها وكأنها شيطان ملازم تأمره بالمعصية. فإذا رفض جعلت حياته سوادا وجعلت معيشته جحيما حتى يذعن ويفعل ما تريد.. والزوج هو الآخر مسئول وأنه كان لابد أن يقاوم وأن يتخلص من هذه الزوجة التي تريد أن تعيش مع المعصية.. والتي تريد الثياب الفاخرة والزينة بصرف النظر عن الطريق الذي ستأتي منه

هذه الأشياء.. وهذا أحد الأسباب في أن الله شرع الطلاق.. ولا عذر لأحد في أن يطيع مخلوقا في معصية الخالق.

وهنا في هذا الموقف تظهر العداوة بين الزوج وزوجته.. ويحاول كل منهما أن يتهم الآخر وحينئذ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥].

أي: أنكم كنتم حزبا واحدا.. كنتم يدا واحدة.. كان كل منكم يسرع إلى نجدة الآخر والوقوف معه على الباطل.. فما لكم اليوم لا ينصر كل منكم الآخر.. بل تقفون أمام الله لا يستطيع أحد منكم أن ينصر الآخر.. ثم يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦].

لماذا استسلموا؟ مع أنهم كانوا فى الدنيا يتعاونون على الإثم والعدوان وكانوا لا يستسلمون لشيء فإذا تعذر عليهم الحصول عليه عن طريق الرشوة أسرعوا إلى طريق الاختلاس أو إلى أي طريق آخر.

obeikandl.com

ومن مشاهد القيامة.. اجتماع حول جهنم

اللّه سبحانه وتعالى حين يروي لنا مشاهد يوم القيامة فى القرآن الكريم.. فإنه يريد أن يعطينا صورة لبعض ما سيحدث في هذا اليوم العظيم.. علها تكون عبرة وعظة.. وخصوصاً أن كل هذه المشاهد ستتم أمام كل من فى المحشر في ذلك اليوم.. وستكون فضيحة علنية.. وقد رأينا فى الفصول السابقة كيف أن أولئك الذين اجتمعوا على الإثم فى الدنيا.. وكيف سيصبحون بعضهم لبعض عدوا فى الآخرة.. وكيف سيأتي اللّه سبحانه وتعالى بالكفار والمنافقين ويحاسبهم.. وما هو الحوار الذي سيدور.

ويأتي اللّه سبحانه وتعالى ينتزع أئمة الكفر من بين أولئك الموجودين فى المحشر.. فيقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩﴾ [مريم].

وهكذا نرى مشهدا آخر يوم القيامة.. الكفار وهم حول نار جهنم ساجدون من الذل ومن الهوان.. ومن بين هؤلاء الكفار والعاصين يأتي اللّه سبحانه وتعالى إلى أئمة الكفر، أولئك الذين كانوا يحاربون دين اللّه فى الأرض.. ويحاولون أن يضلوا المؤمنين.. تجدهم في كل مكان يسخرون من الذين آمنوا ويسفهون منهج اللّه. وهم في ذلك أشداء، أي يستخدمون كل ما لديهم من قوة.. وكل ما يملكون من وسائل.. فالإنسان حين يكون شديدا يجمع كل قواه لمواجهة الحدث الذي يشغله.. وهؤلاء فى الدنيا كانوا أشداء على دين اللّه.. يستخدمون كل ما في إمكانهم من وسائل لمحاربة هذا الدين.. والحقيقة أن الكفار هم أغنى خلق اللّه من ناحية المنهج.. فاللّه سبحانه وتعالى يستخدمهم في إثبات منهجه.. بينما هم يحسبون أنهم يفسدون هذا المنهج.

اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝٣١﴾ [المطففين].

هذه صورة يعطيها اللّه سبحانه وتعالى لنا عن الكفار، إنهم فى الدنيا يسخرون من المؤمنين، ويتغامزون عليهم.. إلى آخر ما نراه في هذه الأيام مما يحدث بالنسبة للمؤمنين، وهم يحسبون أنهم يحاربون منهج اللّه.

ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً.. فهؤلاء الكفار إنما يثبتون منهج الإيمان، ويكونون هم أنفسهم دليلاً على صدق القرآن.. وأنه منزل من اللّه سبحانه وتعالى.. لأن اللّه أخبرنا في كتابه العزيز بأن هؤلاء سيسخرون ويتغامزون على المؤمنين فى الدنيا.. ولو أن لديهم

فطنة لما اتخذوا هذا السلوك.. وحينئذ كنا سنقول: إن القرآن قد قال لنا: إن المجرمين والكفار سيسخرون من الذين آمنوا فى الدنيا، ولم يسخر منا أحد، ولم يتغامز علينا أحد، ولكن كونهم سخروا وتغامزوا قد أعطونا الدليل على صدق منهج الله.. لأنهم فعلوا ما أنبأنا الله أنهم سيفعلونه.. وبذلك كانوا هم أنفسهم دليلاً على صدق المنهج.. لأنهم جاءوا وفعلوا ما أخبرنا الله أنهم سيفعلونه.. ولا يجب أن يضيق صدر المؤمن بهذه الأفعال.. بل كلما حدثت قال المؤمن سبحان الله.. لقد أخبرنا الله أنهم سيفعلون وفعلوا.. وصدق الله العظيم.. وأصبح هؤلاء المجرمون مثبتين للإيمان وهم يحسبون أنهم سيهدمونه.. تماماً كقوله الحق سبحانه وتعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

فإذا جاء المضلون ليحدثونا بنظريات تتعارض مع كلام الله عن خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان.. نقول لو لم يأت هؤلاء لقلنا أخبرنا الله عن المضلين الذين سيجادلون فى الخلق فأين هم.. ولكن كونهم أتوا.. وأضلوا بما قالوه عن أن الإنسان أصله قرد، وأن السماوات والأرض أصلها كذا وكذا.. محاولين بذلك التشكيك في منهج الله.. نقول لهم: لقد ثبتم المنهج في قلوبنا.. لأن الله قد أخبرنا بما ستفعلونه، وجئتم أنتم تصديقا لمنهج الله وفعلتموه.. فشكرا لكم أنكم كنتم دليلا على صدق المنهج.

elshaarawy / alkandl.com

دخول الجنة برحمة الله

يأتي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ينزع أئمة الكفر هؤلاء.. ومعنى ينزعهم.. أنه يأخذهم بالقوة والقهر دونما إرادتهم.. فكأنهم ينزعون نزعاً.. ويأتي بهؤلاء على رؤوس الأشهاد في المحشر.. ليرى الناس - كل الناس - هؤلاء الذين كانوا أعزاء في الدنيا يبارزون الله بالمعاصي.. في قمة الذل والهوان يوم القيامة.. وكأن الله يأخذهم من قمة العز والنعيم التي كانوا فيها في الدنيا.. إلى قمة الذل الهوان من قمة العلو والنعيم التي كانوا فيها في الدنيا.. إلى قمة الذل والهوان في الآخرة وأمام خلق الله جميعاً.

على أننا قبل أن نمضي في الحديث عن مشاهد يوم القيامة.. لابد لنا من وقفة عند حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته. قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: حتى أنا»[1].

إذا كانت هذه هي الحقيقة فلماذا الحساب؟.. وإذا كان الإنسان لا يدخل الجنة بعمله فلماذا العمل الصالح شرط لدخول الجنة؟.. ألم يكن من المنطقي أن الله سبحانه وتعالى يدخل من يشاء الجنة برحمته وكفى؟.

نقول للذين يثيرون هذا الكلام أنكم لم تفهموا معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ذلك أن الأعمال الصالحة عند الله سبحانه وتعالى لا تزيد من ملكه شيئا.. والعمل الصالح مهما بلغ لا يمكن أن يتكافأ مع النعم التي أوجدها الله سبحانه وتعالى.. فالنعم الموجودة في هذا الكون.. والنعم التي ينعم بها الله علينا لا يمكن أن تتساوى معها الأعمال الصالحة في الدنيا مهما كانت.

ولقد قيل إن هناك عبدا من عباد الله كان يعبد الله ليلا ونهارا.. ولا يكف عن الصلاة والتسبيح والركوع والسجود.. حتى إنه قبض وهو ساجد وعندما جاء الحساب يوم القيامة قيل له ادخل الجنة برحمة الله.. فقال بل أدخل الجنة بعملي.. فجاءوا بالميزان ووضعت فيه كل الأعمال الصالحة للرجل.. ووضع في الكفة الأخرى نعمة النظر وحدها، فرجحت نعمة النظر.. فقال الرجل: أدخل الجنة برحمة الله. فالعمل الصالح الذي يقوم به الإنسان في الدنيا لا يتساوى مع نعم الله عليه.

والإنسان المؤمن عندما يتبع منهج الله فإنه لا يعمل عملاً ينفع الله جل جلاله.. ولكن منهج الله لنفع الإنسان.. يعطيه الحياة الطيبة في الدنيا، ويمنع عنه كثيرا من الشرور

(١) سبق تخريجه.

التي يتعرض لها إذا لم يتبع المنهج.. فكما قلنا من قبل: إن المنهج يحمي الإنسان من المجتمع.. وينقله من حياة الغابة إلى الحياة الآمنة المطمئنة.

تماما كما تقول لابنك ذاكر حتى تنجح.. فإذا نجحت فلك مكافأة.. المذاكرة لا تفيد الأب، ولكنها تفيد الابن في مستقبله.. وتزيد أمامه فرص الحياة لكي ينشأ وهو قادر على أن يكسب قوته.. وقادر على أن يتقدم فى المجتمع إلى أكبر المراكز.. إذن فالمذاكرة للابن وليست نفعاً للأب.. فإذا أعطاه الأب مكافأة على نجاحه، فذلك فضل من الأب على ابنه.

والله سبحانه وتعالى حين وضع لنا المنهج.. لم يضعه ليحقق لنفسه تبارك وتعالى نفعاً.. فأنت حين تصلي لا تفيد الله صلاتك.. وإنما تعود عليك هذه الصلاة بالنفع بأنك تنضبط انضباط عبادة.. يجعل الله معك.. ينظرك وقت الشدة، ويسترك وقت الفضيحة، ويرزقك وقت العسر.

إذن.. فهذه الصلاة التي جعلت الله سبحانه وتعالى في جانبك أنت الذي استفدت منها، بأن أخذت قدرة الله إلى جانبك.

ومن منا لا يحتاج إلى قدرة الله.. تأتيك وقت الشدة يوم تتخلى عنك الأسباب كلها.. ولا يبقى إلا قدرة الله سبحانه وتعالى لينجيك.. تأتيك وقت الشدة لتفتح لك من أبواب النجاة مالم تكن تدري على اتباع هذا المنهج يوم القيامة هو من فضل الله على عباده.

إذا كان الأمر كذلك.. وكان العمل الصالح لا ينفع إلا صاحبه.. وكان الموقف يوم القيامة أن كل الأعمال الصالحة لا تتساوى مع نعم الله.. فلماذا الحساب؟ لأن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الأعمال الصالحة شرطا لفضله ورحمته.. فأنت إذا لم تقدم هذا العمل الصالح فى الدنيا.. فإنك لا تستحق ولا تدخل ضمن من يستحقون فضل الله ورحمته فى الآخرة.. ولذلك فلكي تحصل على الفضل، ولكي تستحق الرحمة.. لابد أن تقدم العمل الصالح أولاً.. فإذا لم تقدمه منع عنك هذا كله.. وهذا هو معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل أحدكم الجنة بعمله»[1].. أى إن هذه الأعمال الصالحة عندما توضع فى الميزان لا تدخل صاحبها الجنة.. ولكنها شرط لكي يشمله الله برحمته، فيدخل الجنة، ويفيض الله من فضله عليه ما يشاء.

على أننا لابد أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا هذا الفضل فى الدنيا.. فجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة مثل.. وجعل السيئة بمثلها، ووضع معها المغفرة والرحمة والتوبة ليمحو منها الكثير.. ولو أننا كنا نحاسب بعدل الله وحده.. لكانت

---

(١) رواه أحمد فى المسند [٢/٢٥٦] وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، وقال الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف.

السيئة تساوي الحسنة ولما تدخلت مغفرة الله ورحمته لتمحو السيئات وتزيلها.

ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا ونحن فى الدنيا إلى أنه يعاملنا بفضله.. ولو عاملنا بعدله لهلك كل من فى الأرض بذنوبهم.. مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥].

إذن.. فالحق سبحانه وتعالى ونحن فى الدنيا يعاملنا بالفضل.. فإذا كنا فى الآخرة.. كان فضله أعم وأشمل.. فكل نعمة من نعم الله فى الجنة هي من فضل الله علينا وليست حقا مكتسبا لنا.

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قمة الإيمان، وقمة العمل الصالح، والمعصوم من الله سبحانه وتعالى يقول: «حتى ولا أنا»، فهو تشبيه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيه لنا لنتأكد أنه مهما بلغت الأعمال الصالحة.. فالإنسان محتاج لفضل الله ليدخل الجنة. فرسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرنا عملا وأقلنا ذنبا.. وأقربنا إلى الله سبحانه وتعالى.. فإذا كان الرسول بكل هذه الصفات سيدخل الجنة برحمة الله.. فمن باب أولى ألا يدعي عبد أو يقول إنه سيدخل الجنة بعمله.. بل كلنا محتاجون لفضل الله.. ذلك الفضل الذي يمحو السيئات، ويضاعف الحسنات أضعافا مضاعفة.

على أننا لكي نكمل الصورة لابد أن نتحدث عن مشهد من مشاهد القيامة. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الزمر: ٦٩] هل هذا القضاء حساب؟.. وهل سيحاسب النبيون يوم القيامة؟.. إذا أخذنا الآية فإنها تجمع بين الشهداء والنبيين.. والمعروف أن الشهداء يدخلون الجنة بلا حساب.. وفي سورة يس عندما جاء العبد الصالح ليدعو الناس إلى الإيمان، ويطالبهم باتباع المنهج الذي نزل على الرسول.. وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ ﴾ [يس]. إلى آخر ما جاء فى الآيات. عندما قال الرجل الصالح ذلك.. ودعا الناس إلى اتباع النبيين قتله الكفار.. فماذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧ ﴾ [يس]؛ أي: أن الله سبحانه قسم له دخول الجنة ساعة استشهاده.. ولم ينظره إلى يوم القيامة.. والدليل على ذلك أن الآية تقول: ﴿ ... يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧ ﴾

ولو كان هذا القضاء فى الآخرة لما قال الرجل ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴾.. لأنه في هذا الحالة وفي يوم الحساب سيعلم قومه جميعاً بدخوله الجنة.

إذن.. فالله سبحانه وتعالى قسم لهم الجنة ساعة الاستشهاد.. وإذا كان الشهداء يتخطون مرحلة الموت مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وما داموا أحياء عند ربهم.. والحياة عند الله هي الحياة الخالدة التي لاموت بعدها.. وما داموا هم ينعمون في هذه الحياة، فقد قسم الله لهم الجنة ساعة استشهادهم.. بينما أجل باقي خلق الله إلى يوم القيامة.

هذه هي منزلة الشهداء عند الله سبحانه وتعالى.. والنبيون منزلتهم أعلى من الشهداء؛ لأنهم في الآية الكريمة: ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾.

أي: أنهم يسبقون الشهداء.. ولكن النبيين يحضرون يوم القيامة لا ليحاسبوا على أعمالهم ولكن ليكون كل نبي شهيدا على أمته.. وتكون الأمة شاهدة على أن الرسول قد بلغ الرسالة.. وبذلك يحضر الشاهد والمشهود.. وفي هذا يكون هناك تقريع للعاصين حتى لا يستطيعوا أن ينكروا أن الرسول قد بلغ.. وحتى يكون هذا التقريع أمام خلق الله كلهم.

obeikandl.com

عصمة الأنبياء وشهادتهم على أممهم

الأنبياء معصومون.. فكيف يكون هناك حساب لمن عصمهم الله من المخالفات والذنوب والمعاصي.. وإنما شهادة على أن الرسول قد بلغ.. وتقريع لأولئك الذين حرفوا المنهج أو خالفوه.. ولذلك فإنك لو التفت لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

يأتي هذا السؤال من الله سبحانه وتعالى إلى عيسى ابن مريم.. حتى لا يستطيع أحد من الذين اتخذوا عيسى ابن مريم إلهاً.. أن يأتي ويدعي يوم القيامة أن عيسى عليه السلام هو الذي أمر الناس أن يعبدوه.. ولذلك يأتي الله جل جلاله بعيسى ابن مريم أمام مشهد من الخلق جميعا ليسأله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ويرد عيسى عليه السلام ليكذب أولئك الذين اتخذوه إلهاً ويقرعهم فيقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

وهكذا يكون عيسى عليه السلام شاهدا على أولئك الذين اتخذوه إلها بأنهم كافرون.. وهكذا يأتي الأنبياء جميعا.. كل نبي يكون شهيدا على أمته بالمنهج الذي بلغه.. حتى لا يستطيع أحد أن يجادل ويقول إن الرسول قد قال هذا: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

وهكذا يجعل الله سبحانه وتعالى العصاة والكافرين يشهدون على أنفسهم بأنهم كاذبون.

هذا هو حساب النبيين والشهداء.. فهؤلاء لا يحاسبون لأن الله قد كتب لهم أن يدخلوا الجنة بغير حساب.. بل إن هؤلاء يشفعون لغيرهم يوم القيامة.. فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»(١).. لذلك فإن كل من ينكر شفاعة الرسل نقول له اقرأ قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله تعالى: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧].

واستخدام الحق سبحانه وتعالى لكلمة ﴿إِلَّا﴾ معناها أن هناك استثناء.. فإلا حرف استثناء.. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه أنه يستثنى من خلقه من

(١) رواه أبو داود [٤٧٣٩] والترمذي [٢٤٣٥، ٢٤٣٦] وقال الألباني: صحيح.

يشاء ليكونوا شفعاء.. فإن أجدر الناس بهذا الاستثناء هم أنبياء الله ورسله الذين اختارهم ليبلغوا منهجه إلى البشر.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين.. والمرسل إلى الناس كافة.. تكون له الشفاعة الأولى، لأنه لم يرسل إلى قوم معينين كباقي الرسل.. وإنما أرسل إلى البشرية جمعاء.. ولذلك فإن أمته هي أكثر الأمم عددا.. وشفاعته هي أكثر الشفاعات اتساعا.. إذن فالشفاعة مثبتة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بنص القرآن الكريم(١).

على أن هناك صورا أخرى أخبرنا الله سبحانه وتعالى بها في القرآن الكريم.. تأمل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ﴾ [فصلت: ٢٩].

أي: أن الذين كفروا بالله سيأتون يوم القيامة ويؤمنون.. طبعاً مادامو قد رأوا كل شيء بعين اليقين.. ماذا يقول الذين كفروا؟ ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

وهكذا تكون العداوة سافرة بين الإنسان وبين شياطين الجن والإنس يوم القيامة.. ويعلم الإنسان علم اليقين أن أولئك الذين كانوا يزينون له المعصية.. الذين اتخذهم أخلاء في الدنيا كانوا أعدى أعدائه.. وكانوا يريدون به السوء والهلاك.. وكانوا يدفعونه دفعاً إلى المعصية والعذاب.. وهؤلاء يطلق الله سبحانه وتعالى عليهم في القرآن الكريم اسم القرين.

ولقد سمعنا أشياء كثيرة تقال عن القرين.. فهناك من يقول إنه خلق مثل الإنسان.. على شبهه نفسه وله صوته.. ويلازم الإنسان طول حياته يعرف كل شيء عنه، ولكنه يعيش مدة أطول منه.. ولذلك يقولون إن الذين يمارسون تحضير الأرواح.. إنما يقومون بتحضير هذا القرين الذي يأتي ليتكلم بصوت الميت نفسه، ويحكى كل شيء عن حياته؛ لأنه كان يلازمه فيها.. حتى ليعتقد الحاضر أن روح الميت هي التي تتكلم.

والحقيقة أن الناس قد أخطأوا في فهم معنى القرين.. مع أن الله سبحانه وتعالى قد شرح لنا في آيات كثيرة معنى القرين.. فقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝﴾ [الزخرف].

وقوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

---

(١) رواه البخاري [٧٥١]، ومسلم [١٩٣/ ٣٢٢] عن أنس رضي الله تعالى عنه.

وقوله: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٥].

وهكذا نرى أن القرآن الكريم.. قد بين لنا بما لا يدع مجالاً للشك والتأويل أن القرين هو من شياطين الجن والإنس.. وأن مهمته هو أن يبعد الناس عن منهج الله.. وأن يزين لهم المعصية وأن يوسوس لهم بالسوء.

هذه هي مهمة القرين كما وضحها لنا القرآن الكريم.. ولكل إنسان منا قرين.. يحاول أن يدفعه إلى النار.. وأن يدخل في قلبه الشك فى الإيمان.. ويزين له عبادة المال والدنيا.. فإذا جاء يوم القيامة تبرأ القرين.. وقال ما أطغيته ولكن قلبه فاسد.

وبعض الناس يستمعون إلى هذا القرين فيقودهم إلى النار.. وبعض الناس يعصمهم إيمانهم من ذلك فيفوزون بالجنة.. ولذلك فإن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ [فصلت: ٢٩].

معناه أن هؤلاء الكفار يريدون أن يروا رؤية العين والمشاهدة.. القرناء الذين زينوا لهم السوء.

وحيث إننا لا نرى فى الدنيا شياطين الجن لأنهم محجوبون عنا.. فكأن كل كافر يريد أن يرى شيطان الجن الذي وسوس له بالسوء، وقاده إلى الكفر.. ليضعه تحت قدميه فى النار حتى يذوقا العذاب معاً.. وهي شهوة انتقام ودليل على الندم.

فالإنسان فى الآخرة، وفي هذا الموقف العصيب، يريد أن يفتك بكل قوته بكل من قاده إلى العذاب.. سواء كان جنياً أو إنسيًا.. وهذه العداوة الرهيبة تظهر فى الآخرة في أكثر من مشهد من مشاهد يوم القيامة.. أشدها عنفاً وقوة.. هو مشهد اللقاء مع القرين.. لأن هذا القرين هو الذي زين له المال الحرام.. وأغراه بالدنيا حتى استجاب له.

وألوان العذاب كثيرة فى الآخرة.. فجهنم فيها منازل كثيرة. والله سبحانه وتعالى قد صور لنا الهول الأكبر في مشاهد يوم القيامة.. ليس فقط فى الحوار الذي سيجري وهو كثير.. ولكن أيضا فيما سيحدث للكافرين.. ولكي نستكمل صورة الحوار قبل أن ندخل فى المشاهد الأخرى.. نأتي إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ۝ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [الصافات].

وبعض الناس قد يتساءل.. فاليمين عند الناس هو الصراط المستقيم.. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الإسراء: ٧١].

فكيف يأتونهم عن اليمين ثم يقودونهم إلى النار؟.. نقول لهم: إن اليمين هي جهة الابتداء إلى الأعمال.. فالإنسان يأكل بيمينه.. ويفعل معظم شؤون حياته بيمينه.. فهو يبدأ كل شيء باليمين؛ لأنها مركز القوة.. فإذا احتاج إلى جهد أكبر استعان بشماله.

ونحن هنا نتحدث عن الإنسان العادي.. ولا نتحدث عن الإنسان الأشول الذي تكون قوته في ذراعه اليسرى، فتلك حالات قليلة.. إذن فاليمين هي بداية الخير للإنسان في كل شيء.. وهي التي تعينه في حياته في كل أموره.. فإذا قالوا: ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨]. كنتم تزينون لنا الباطل على أنه حق، تقولون أفعل كذا وكذا، فإذا قلنا لكم مثلا إن هذا حرام، حاولتم تزيين ذلك لنا؛ تماما كالذي يغريك بكأس من الخمر، فإذا قلت له إن الخمر حرام، قال لك إننا سنتناول الخمر فى الجنة. ونسي أن هذا قانون وهذا قانون وأن ما سنتناوله فى الجنة ليس كمثله شيء في هذه الدنيا؛ لأنه صنعة الله خالصة للمؤمنين. وبعض الناس يجادل في هذه النقطة جدالا كبيرا، ونحن لن ندخل في جدل في أن الخمر ليست لذة للشاربين.. وطعمها مُر حتى إن الإنسان يتجرعها بسرعة حتى لا يتذوق طعمها.. ولكنها فى الآخرة: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦]. كما قال سبحانه وتعالى. ومن هنا فإنها تختلف اختلافا مبينا.

ولكننا نقول لهؤلاء جميعاً: انكم لم تفهموا معنى العبودية لله ومعنى الإيمان.. معنى العبودية هو أن أطيع الله فيما قال.. فإذا قال أفعل فعلت.. وإذا قال لا تفعل امتنعت.. ومن هنا فإننا نتجه إلى القبلة وهي الكعبة في صلاتنا. لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نتجه إليها.. ولو قال الله سبحانه وتعالى اتجهوا إلى مكان آخر لاتجهنا إليه بدون مناقشة.. لأن الله المعبود هو الذي يختار وليس المخلوق العابد.. ومن هنا فإن منهج السماء قد نزل إلينا باختيار الله. وأطعناه طاعة عبودية لله.. ونحن نُقَبِّل الحجر الأسود فى الحج والعمرة.. ونرجم الأحجار التي تمثل إبليس.. وهذا حجر وهذا حجر.. ولكن الذي يفرق بينهما فى التقبيل أو الرجم.. هو أمر الله لنا بأن نفعل هذا.

ولعل تغيير القِبْلة في ليلة النصف من شعبان كان اختبارا إيمانيا للمسلمين.. والله سبحانه وتعالى معنا حيثما كنا في كل مكان.. وله سبحانه المشرق والمغرب.. ولكن حين نزل الوحي بتغيير القِبلة، وأن يتجه المسلمون إلى البيت الحرام، بدلا من اتجاههم إلى بيت المقدس.. لم يكن هذا إضافة للتكليف الإيماني.. ذلك أن اتجاهي إلى الكعبة المشرفة، أو اتجاهي إلى المسجد الأقصى.. كلاهما يأخذ مني الجهد نفسه.. ولذلك لم تكن هناك إضافة لجهد إيماني جديد بحيث يقال: إن زيادة فى التكليف قد حدثت.

ولكن الله سبحانه وتعالى حين أمر بتغيير القبلة كان في ذلك حكمة، هي الاختبار الإيماني للناس ولقد كان الله قادرا أن يجعل المسلمين يتجهون إلى الكعبة المشرفة من أول صلاة، ولكنه سبحانه وتعالى أرادنا أن نفهم أنه لا شيء في هذا الكون مقدس لذاته أو له منزلة أعلى من خصائصه الذاتية ولكن التقديس يأتي من اختيار الله لهذا الشيء فإذا اختار الله مكانا لقِبلة الصلاة اتجهنا إليه، فإذا أمرنا أن نتجه إلى مكان آخر اتجهنا إليه بدون نقاش.. لماذا؟ إنه لا المكان الأول ولا المكان الثاني لهما قدسية في ذاتهما بعيدة عن

اللّه، بل إن القدسية تأتي من اختيار اللّه لهما. فإذا اختار اللّه مكانا آخر، نخضع هذا الاختيار، فإذا أمرنا بأن ننصرف عنه إلى مكان آخر.. فإننا نطيع الأمر؛ لأننا لا نخضع للمكان نفسه ولكننا نخضع لاختيار اللّه له؛ ولذلك كان تغيير القِبلة امتحانا إيمانيا للمسلمين. قال اللّه سبحانه وتعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢].

لماذا وصف اللّه سبحانه وتعالى هؤلاء الناس بالسفهاء؟.. لأنهم لم يفطنوا إلى المنطق الإيماني في عبادة اللّه.. ذلك المِنطق الذي يجعل اختيار اللّه هو المفصل والمميز لمكان عن آخر.. وليس المكان نفسه.

لذلك فإن الجدل في الآخرة حول قولهم: ﴿ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الصافات: ٢٨].

أي: تلبسون المعصية ثوب الحلال زيفا.. فيرد عليهم أولئك الذين أضلوهم: ﴿ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ٢٩].

أي: أنه لو كان الإيمان في قلوبكم لاتبعتم منطق الإيمان، وما استمعتم إلينا.. وكنتم تأخذون علة تنفيذ الأمر أو سبب تنفيذ الأمر أنه صادر من اللّه.. دونما أن تبحثوا عن أسباب أخرى.. فيكفي أن اللّه سبحانه وتعالى قد قال لنطيع ولا نفعل.. والذين مثلا يحاولون الآن أن يبرروا تحريم لحم الخنزير بأنه يأتي بالدودة الشريطية.. وبأنه يسبب السرطان وغيره، نقول لهم لو أخذنا هذا المنطق ما كنا مؤمنين.. ولكننا لا نأكل لحم الخنزير لأن اللّه قد حرمه.. ولو كان لحم الخنزير يشفي كل أمراض الدنيا ما أكلناه.. لأنه ما دام اللّه قد حرمه فنحن نطيع أمر اللّه. ولا ننتظر حتى نعرف الحكمة من التحريم لكي نمتنع.

فالمسلمون الأوائل لم يكونوا يعرفون تلك الأمراض القاتلة التي يسببها لحم الخنزير.. ولكنهم امتنعوا عنه لأن اللّه حرمه.. وكان كافياً جداً في منطق الإيمان أن يكون الامتناع بتحريم اللّه له.. بدون أن نجهد أنفسنا في معرفة العلة من التحريم.

ولو أخذنا كل شيء بمنطق أننا لابد أن نعرف العلة والسبب لكان هذا منطقا دنيويا، وليس عبادة لله ولا يدخل في منطق الإيمان.. واللّه سبحانه وتعالى يريدنا مؤمنين به إلهاً.. ويكفينا أن يقول أفعل لكي نفعل.

إذن.. فهؤلاء الذين يطيعون منطق الإيمان المعكوس من بعض الناس.. ليحلوا ما حرم اللّه تحت أي ادعاء من الادعاءات.. نقول لهم: إن هذا المنطق هو الذي يتخذه بعض مدعي النبوة وبعض المذاهب الخارجة عن الدين.. فهم يحلون ما حرمه اللّه تحت ادعاءات مختلفة.. ومن الذي يتبعهم.. هم أولئك الذين في داخل نفوسهم ميل للمعصية.. وحب لاتباع الشهوة.. لذلك لاتجد مذهباً من هذه المذاهب المنحرفة.. إلا وهو قائم على تحليل ما حرمه اللّه.. وبمنطق الإيمان المزيف.

فنجد مثلا البهائية والقاديانية وغيرهما من المذاهب التي تريد إباحة الزنى أو زواج المتعة.. أو تريد أن تحرم ما أحله الله من تعدد الزوجات.. تقوم بذلك بادعاءات زائفة، وتفسيرات منحرفة، بالنسبة لآيات القرآن الكريم.. ولذلك فهي تحاول أن توهم الناس بأنها أكثر فهماً للقرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نزل عليه هذا القرآن.. أو من المسلمين الأوائل.. ولا نجد مذهباً من هذه المذاهب يجاهر بالكفر، أو يعلن أنه ابتعد عن الإيمان.. بل كلها تدعي زيفاً أن خطها هو الإيمان الصحيح.. وهذا معنى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾

أي: كنتم تدخلون إلينا بمنطق الإيمان والنبوة الكاذبة.. ويفضح الله سبحانه وتعالى أتباع هؤلاء في قوله: ﴿بَل كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ [الصافات: ٣٠].

أي: أن الميل للمعصية والكفر كان في قلوبكم، فلما قلنا ما قلناه لم تتبعونا بمنطق الإيمان، بل اتبعتمونا لأن كلامنا صادف هوى نفوسكم، ولولا أنكم طاغون منذ البداية ما كنا استطعنا أن نستميلكم تحت أي شكل من الأشكال.

obeikandl.com

كل خلق فيه جزء من الخلق الأول

اللّه سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال صفاته، وخلق فيه كل ما يخدم الإنسان، فالإنسان فى هذا الكون هو السيد، وكل ما فى الكون يخدمه حتى تلك القوى التى تفوق فى قدرتها كل البشر مجتمعين، لا تستطيع أن تتأبى على خدمة الإنسان.. فالشمس لا تستطيع أن تشرق يوما وتغيب يوما.. أو تقترب من الأرض فتحرقها.. أو تبتعد عن الأرض فتحولها إلى كتلة من الجليد.. والبحار لا تستطيع أن تمنع ماءها من أن يتبخر فى طبقات الجو العليا.. فيكون سحاباً يعطينا المطر والماء العذب الذى نشرب منه.. والنبات لايستطيع أن يمنع ثمره عن الأرض فتحدث مجاعة ولا يجد الناس ما يأكلون.. والحيوان لا يستطيع أن يرفض أن يُذبح ليكون لحمه طعاماً للإنسان.. بل إنك تأخذ البقرة من أمام أمها لتذبحها فلا تحاول أن تمنعك.

إذن.. فالكون كله مسخر من اللّه لخدمة الإنسان.. هذا يعطيه الماء.. وهذا يعطيه الطعام.. وهذا يعطيه اللحم.. وهذا يعطيه الصوف.. وهذا يعطيه الخشب.. كل حاجيات الإنسان وضعها اللّه سبحانه وتعالى فى هذا الكون بتسخير منه.. وكل شىء فى الكون يعود إلى اللّه.. إذا أخذنا أى نوع من الجماد أو النبات أو الحيوان.. نجد أنه مخلوق من اللّه خلقا مباشرا رغم كل هذه الوسطة التى نسمعها.. الجماد مخلوق من اللّه ولا خلاف على ذلك.. سواء كان على سطح الأرض أو فى باطن الأرض.. والإنسان لا يستطيع أن يخلق مادة من لا شىء ولكنه قد يستخدم المواد المخلوقة من اللّه بالعلم المكشوف له من اللّه ليصنع خليطاً من المواد.. هذا الخليط كل مادة منه وجدها الإنسان فى الأرض ولم يوجدها. ونحن نتحدى العلماء أن يقولوا لنا عن مادة لا يستخدمون فيها العناصر المخلوقة من اللّه فى الأرض.

فإذا جئنا إلى النبات نجده كله من اللّه.. هذه شجرة خشب.. من أين جاءت؟ من غابات السويد مثلاً.. ومن أين جاءت غابات السويد؟ من جيل من الأشجار قاموا بزراعته هناك.. ومن أين جاء هذا الجيل؟ من الذى قبله.. والذى قبله جاء مما سبق.. ونظل هكذا حتى نصل إلى الشجرة الأولى.. من أين جاءت؟ أوجدها اللّه فى الأرض.. الطعام الذى نأكله، من أين جاءت التفاحة التى تمسك بها بيدك الآن؟ من شجر أحضرناه من أمريكا مثلاً.. ومن أين جاء هذا الشجر. من شتلات كانت تزرع فى منطقة كذا.. ومن أين جاءت هذه الشتلات. من أول شجرة تفاح خلقها اللّه فى الأرض.

إذن.. كل خلق نراه أمامنا الآن فيه جزء من الخلق الأول الذى أوجده اللّه.. ولولا

هذا الجزء لانقرض هذا الصنف من الأرض.. لأن كل شيء حي لابد أن يأخذ حياته من حياة شيء حي سبقه.. ولا توجد حياة من ميت.

إذن.. هذا الوجود الكوني الذي أعده الله للإنسان، هو حلقة مستمرة من الحياة التي أوجدها الله على الأرض فإذا توقفت حلقة منها وماتت قبل أن تعطينا استمرارية الحياة لما بعدها انقرض الشيء؛ ولذلك فإن الكون الذي نعيش فيه هو خلق متجدد لله سبحانه وتعالى يخدم الإنسان حتى نهاية وجود الإنسان على الأرض.. وعندما تأتي الساعة يدمر هذا كله لأن مهمته قد انتهت في الكون.

ثم تأتي بعد ذلك حياة البرزخ التي هي بين الموت والبعث، وهذه حياة لها قوانينها التي لا نعرف عنها شيئا؛ ولكن الإنسان فيها يرى الغيب.. فبعد أن تخمد بشرية الإنسان وتذهب عنه حرية الاختيار ويصبح مقهورا تُزال الغشاوة عن عينيه فيرى الغيب، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وبعد حياة البرزخ يأتي البعث والحساب.. ثم الحياة الحقيقية التي أعدها الله للإنسان ليكون خالدا فيها وهي الآخرة.. وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1] [الأنفال: ٢٤].

---

(١) جاء في كنز العمال للمتقي الهندي [٤٤٢٢٤] من خطب الإمام علي رضي الله تعالى عنه ومواعظه رضي الله عنه: عن عبد الله بن صالح العجلي عن أبيه قال: خطب علي بن أبي طالب يوما فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا عباد الله! لا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها دار البلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالقدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال، وهي ما بين أهلها دول وسجال، لن يسلم من شرها نزالها، بينا أهلها في رخاء وسرور، إذا هم منها في بلاء وغرور، العيش فيها مذموم، والرخاء فيها لا يدوم، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها، وتقصمهم بحمامها.

عباد الله! إنكم وما أنتم من هذه الدنيا عن سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارا، وأشد منكم بطشا، وأعمر ديارا، وأبعد آثارا، فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة الصخور، والأحجار المسندة في القبور، الملاطية الملحدة التي قد بين الخراب فناءها، وشيد بالتراب بناؤها، فمحلها مقترب، وساكنها مغترب، بين أهل عمارة موحشين، وأهل محلة متشاغلين، لا يستأنسون بالعمران، ولا يتواصلون تواصل الجيران، على ما بينهم من قرب الجوار ودنو الدار، وكيف يكون بينهم تواصل وقد طحنهم بكلكله البلى وأكلتهم الجنادل والثرى، فأصبحوا بعد الحياة أمواتا، وبعد غضارة العيش رفاتا، فجع بهم الأحباب، وسكنوا التراب، فطعنوا فليس لهم إياب، هيهات هيهات! ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]=

.....

= فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من الوحدة والبلى في دار الموتى، وارتهنتم في ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو قد تناهت الأمور، وبعثرت القبور، وحصل ما في الصدور، وأوقفتم للتحصيل بين يدي ملك جليل، فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب، وهتكت عنكم الحجب والأستار، فظهرت منكم العيوب والأسرار، هنالك تجزى كل نفس بما كسبت: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه، متبعين لأوليائه، حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله، إنه حميد مجيد.

obeikandl.com

كيف أشهدنا الله على أنفسنا؟

الله سبحانه وتعالى حين خلقنا.. أخبرنا بمراحل الحياة المختلفة فقال لنا: لقد كنتم في عالم الذر وأشهدتكم بأني ربكم وخالقكم.. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف].

هاتان الآيتان أثارتا جدلا كبيرا بين الناس.. كيف أشهدنا الله جميعا على أنفسنا؟ نقول: أولاً كلنا فينا جزء من آدم.. لماذا؟.. لأن حياتي أتت من جزيء الحي من أبي.. ولو أنني لم آخذ هذا الجزيء الحي ما جئت إلى الحياة.. فلو أن أبي مات قبل أن يتم تلقيح بويضة أمي ما جئت إلى الحياة.. وأبي أخذ من والده.. ووالده أخذ من جده وهكذا إلى أن نصل لآدم.. والسلسلة من آدم إلى يوم القيامة هي سلسلة حياة متصلة.. كل يأخذ الحياة من أبيه.. ولو أن سلسلة الحياة هذه انقطعت ما استمرت الحياة.. فالحياة لا توجد من موت.. ولكن من حياة قبلها.. والميت لا يستطيع أن يعطي الحياة لأحد.. ولكن الحي فقط هو الذي يستطيع أن يعطي الحياة لذريته وأن تكون له ذرية.. والله خلق الحياة كلها دفعة واحدة ووضعها في ظهر آدم.. وهي تمضي بعد ذلك بالقدرة التي أوجدت الحياة الأولى.. فتظل هذه القدرة تبدي لنا ألوان الحياة المطمورة فيها حتى يأتي أمر الله وتنتهي الحياة.. ولذلك قيل عن الحياة: أمور يبديها الله ولا يبتديها.. أى إن تظهر لنا بالتدريج.. وتأتي لهذا الكون بالتدريج.. ولكن الله خلقها أزلاً.

يأتي بعد ذلك كيف يمكن أن يأتي الله بهذا الخلق كله؟.. نقول: إن الجزء من الحيوانات المنوية الذي يعطي التلقيح دقيق جدا.. وهذا الجزء هو الذي يحمل الحياة من الأب إلى الابن.. أما باقي ما يتم إفرازه فلا قيمة له.. هذا الجزء البالغ الدقة الذي يحمل سر الحياة.. ويضعه في رحم الأم ليبدأ الخلق، لو جمعناه بالنسبة للبشر جميعا الموجودين على ظهر الأرض في هذه الأيام.. والذين يبلغ عددهم ثلاثة آلاف مليون نسمة وهو يمثل النطفة التي قال عنها القرآن الكريم: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧].

هذه النطفة التي تحتوي على حياة الإنسان وخصائصه وطباعه.. ولو جمعناها لملأت نصف كستبان صغير.. هذه المساحة الدقيقة فيها بذرة الحياة لهؤلاء الناس كلهم: ثلاثة آلاف مليون نسمة.. ولك أن تقيس على ذلك البشرية كلها.. فبذرة الحياة منذ عهد آدم حتى الآن لا تملأ كوب ماء.

إذن . . الله حين أخذ من صلب آدم ذريته . . كانت هذه الذرية موجودة فى الحيوانات المنوية في ظهر آدم . . ولكنها موجودة في دقة هائلة . . وكلما ارتقى الصانع زادت دقة الصناعة . . فنحن نرى أنه كلما تقدم العلم أصبحت الصناعة دقيقة . . فجهاز الراديو مثلا الذي كان يصنع في مساحة كبيرة أصبح الآن يصنع في حجم زرار صغير . . والساعة التي كانت أجزاؤها تحتل مكانا كبيرا أصبحت الآن توضع في فص خاتم . . وكلما تقدمنا فى العلم دقت الصناعة بل ودقت المقاييس أيضا . . فقد كنا نقيس بالمتر فأصبحنا نقيس الآن على جزء من ألف من الثانية . . هذا في علم البشر . . فما بالك بعلم الله وصنعته .

لقد عرفنا أنه ما دام أول الخلق هو آدم . . إذن كل ذريته خلقت مطمورة فيه . . لأنه كما قلنا لابد لسلسلة الحياة أن تستمر . . قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

وبنو آدم هم أولاد آدم منذ الخلق إلى أن تقوم الساعة، إذن . . يكون بنو آدم هم المأخوذ منهم فأين المأخوذ؟ نقول : إن المأخوذ هو الذرية . . وفي هذه الحالة يكون المأخوذ منه والمأخوذ قد اتحدا وهذا مستحيل . . يأتي الحديث الشريف لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليشرح لنا ماذا حدث . . فيقول : إن الله مسح على ظهر آدم . . وأخرج منه الذرية المطمورة فيه والتي ستأتي إلى الحياة حتى قيام الساعة . . وقال لهم : ألست بربكم؟ قالوا : نعم أنت ربنا سبحانك . . إذن في هذه الحالة يكون المأخوذ منه هو آدم . . والمأخوذ هو ذريته . . فكأن الله قد مسح بيده على ظهر آدم وأخرج الذرية وأشهدها على نفسه [١] .

(١) قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ أي واذكر لهم مع ما سبق من تذكير المواثيق في كتابهم ما أخذت من المواثيق من العباد يوم الذر . وهذه آية مشكلة، وقد تكلم العلماء في تأويلها وأحكامها، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه فقال قوم : معنى الآية أن الله تعالى أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض . أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم . دلهم بخلقه على توحيده؛ لأن كل بالغ يعلم ضرورة أن له ربا واحدا ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أي : قال . فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم، والإقرار منهم؛ كما قال تعالى في السماوات والأرض : ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ . ذهب إلى هذا القفال وأطنب . وقيل : إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وإنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها .

قلت : وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم غير هذين القولين، وأنه تعالى أخرج الأشباح فيها الأرواح من ظهر آدم عليه السلام .

روى الترمذي وصححه عن أبي هريرة قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : . لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل رجل منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال يا رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه فقال أي رب من هذا؟ فقال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود فقال رب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال أي رب زده من عمري أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم عليه السلام جاءه ملك الموت فقال أو لم يبق من عمري أربعون سنة قال أو لم=

يأتي إنسان ليقول: إن هذا غير معقول.. كيف وأنا لم أخلق يشهدني الله على نفسي؟ نقول: إن الله سبحانه وتعالى رحمة بعقول البشر قد أوجد لهم من المشاهد ما يقرب الغيب إلى أذهانهم... كيف؟

الله سبحانه وتعالى حين أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج.. وقف إبراهيم وأذن، ولم يكن هناك بشر حوله.. أي إن مشهدية إبراهيم وهو يؤذن لم تحدث إلا لعدد محدود من الناس.. أو ربما لم يشهدها أحد على الإطلاق.. ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى حملت هذا الأذان لنا ونحن في عالم الذر وأبلغته لنا.. ولذلك نجد الناس في الحج ينطلقون وهم يرددون لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. دليل على أنهم سمعوا نداء إبراهيم قبل أن يخلقوا وانطلقوا يلبون هذا النداء.. هل رأى أحد من هؤلاء إبراهيم وهو يؤذن؟ لم يره أحد من الملايين التي تحج كل عام.. ولكن هؤلاء الملايين سمعوا نداء إبراهيم واستجابوا بقدرة الله سبحانه وتعالى.. وعندما نسمع هذا النداء نعرف أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يلهمنا بالفطرة ويضع فينا أشياء قبل أن نخلق.. كما أشهدنا على نفسه.. فخلق كل واحد وهو يعرف الله بالفطرة.

قد يقول بعض الناس إن الحج هو من أركان الإسلام الخمسة وأنه مذكور في القرآن الكريم ومُبَلّغ لنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، نقول: إن الحج للكعبة كان موجودا قبل بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن البشر كانوا يحجون للكعبة قبل أن يفرض الحج في الإسلام، بل إن القبائل كلها في الجزيرة العربية وغيرها كانت تأتي لتحج إلى بيت الله الحرام كل عام وكانت تأتي من أماكن بعيدة؛ فالحج للبيت كان فطرة إيمانية.. ولو أن الشيطان استغل غفلة الإنسان واستطاع أن يدخل إلى هذا المكان عبادة الأصنام قبل رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. إلا أن الناس لم تكن تحج للأصنام.. ولكنها كانت تحج للبيت. فالأصنام كانت موجودة في كل مكان ولكن الحج كان للبيت وحده وفشلت كل المحاولات البشرية التي حاولت أن تنشئ أماكن أخرى يحج إليها الناس بما فيها قصة أبرهة ملك الحبشة الذي أنشأ مكانا فخما ليحاول أن يجذب الناس إليه فلم يأت إليه أحد، وحينئذ قرر أن يهدم الكعبة فأفناه الله وجيشه، قد يتساءل البعض كيف يتحدث الله لنا جميعا وبأي لغة دار هذا الحديث؟ ونحن سنخلق ونتحدث

= تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته[١].
في غير الترمذي: فحينئذ أمر بالكتاب والشهود[٢]. في رواية: فرأى فيهم الضعيف والغني والفقير والذليل والمبتل والصحيح. فقال له آدم: يا رب، ما هذا؟ ألا سويت بينهم! قال: أردت أن أشكر[٣].

---

(١) رواه الترمذي [٣٠٧٦].
(٢) رواه أحمد في المسند [١/ ٢٥١].
(٣) رواه أبو يعلى في مسنده [١١/ ٢٦٣/ ٦٣٧٧].

لغات مختلفة، نقول: إن الحديث بين اللّه وخلقه جميعا يتم بلغة واحدة، اللّه قادر على أن يجعل كل خلقه يفهمونها، وهذا سيحدث فى الحساب يوم القيامة.. فاللّه إذا تكلم استطاع أن يُفهم كل خلقه وأن يفهمهم.

إذن.. فالحق سبحانه وتعالى أخبرنا عن مراحل الحياة.. منها ما هو مشهود لنا.. ومنها ما هو غيب عنا، ولكن ما دام اللّه قد قال فنحن نأخذ الكلام بمنطق الإيمان، فمادام الكلام من اللّه ومادمنا قد آمنا به إلها خالقا وقادرا، فكل ما يقوله لنا اللّه نأخذه بيقين الإيمان.

والذي أتعب الدنيا ووضع الشقاء في حياة الإنسان.. أن الناس أخرجت الحياة الدنيا عن معنى وجودها.. فالحياة الدنيا هي وسيلة للآخرة.. هي اختبار من اللّه سبحانه وتعالى لعباده.. يأتي الجزاء عليه فى الآخرة.. ولكن الناس حولوا الحياة الدنيا من وسيلة إلى غاية وكأنما وجود الإنسان فى الحياة الدنيا هو الهدف من خلقه.. فأصبح كل إنسان يريد أن يحصل على كل ما يستطيع في حياته الدنيوية.. بصرف النظر عن منهج اللّه وعن أن الدنيا دار اختبار. ورغم أن اللّه سبحانه وتعالى قد وضع في حياتنا أن هذه الدنيا ليست هي الهدف من خلق الإنسان.. فجعل الدنيا دار أغيار لا يثبت فيها الإنسان على حال.. فالقوي اليوم قد يصبح ضعيفا غدا.. والغني اليوم قد يصبح فقيرا غدا.. والنعمة لا تدوم لأحد.. فهي إن لم تفارق الإنسان في حياته.. فارقها الإنسان بالموت.. ورغم أننا نشهد كل يوم.. إلا أن الكثيرين لا يفهمون ما يحدث.. فهم يحاولون أن يحصلوا على النعم الدنيوية بأي وسيلة ولو عن طريق الحرام.. وهم في انطلاقهم إلى الأخذ من الدنيا.. ينسون أن هناك حياة دائمة فى الآخرة.

والناس لا تنتبه إلى أن الحياة الدنيا لا يمكن أن تكون هي النهاية.. ذلك أننا لسنا متساويين في حظنا منها.. ولا في عمرنا فيها.. فهناك من يكون عمره فى الدنيا ساعة وهناك من يكون عمره يوما.. وهناك من يكون عمره سنوات، إذن.. العمر فى الدنيا ليس متساويا.

والناس لا تنتبه إلى أن الجزء الذي في إرادة بشرية في حياة الإنسان هو الحياة الدنيا.. فالإنسان مادام موجودا على هذه الأرض يعطيه اللّه مشيئة الاختيار.. ولكنه فى اللحظة التي يغادر فيها هذه الحياة وهو يحتضر وقبل أن يموت.. تخمد بشريته وينتهي اختياره ويصبح مقهورا.. فلا يسيطر على شيء.. وينتهي الاختيار تماما ويعود الإنسان إلى القهر لقدرة اللّه فكأنما الفترة الوحيدة التي للإنسان فيها ذاتية، أو التي يملك فيها قدرة الاختيار لا تكون إلا فترة الاختبار الدنيوي.. فيكون فيها الإنسان صالحا للطاعة وصالحا للمعصية.. ليتم الابتلاء أو الامتحان الذي يحدد فيه مصيره.. إما إلى الجنة وإما إلى النار والعياذ باللّه.

مهمة الرسل.. والثواب والعقاب

بعد أن وصلنا بالعقل أن هناك خالقاً لهذا الكون.. وأن هذا الخالق قادر قوي عزيز.. ودليل قدرته هذا الكون الذي خلقه: يأتي دور الرسل.. الله سبحانه وتعالى، لابد في هذه الحالة أن يرسل الرسل ليقولوا للناس إن خالق هذا الكون هو الله.. وأن صفاته سبحانه وتعالى أنه قوي عزيز قادر رحيم.. وأنه إله واحد لا شريك له.. وأنه يطلب منكم أن تفعلوا كذا وكذا لتعبدوه وتشكروه على نعمة الحياة والخلق.. الرسل هنا جاءوا ليبلغوا الناس قضية محسوسة.. وقضية يمكن أن يحدث فيها جدل.. القضية المحسومة: أن الله سبحانه وتعالى هو خالق هذا الكون.. فالله قال إنه خلق.. ولم ينازعه سبحانه وتعالى في هذا أحد ويدعي الخلق.. إذن القضية محسومة لله.. هذه قضية لا جدال فيها.. وجود الله سبحانه وتعالى وأنه موجد هذا الكون وخالقه.. الرسل جاءوا بمنهج الله أفعل ولا تفعل ولكي يعرف الناس بصدق هذا المنهج وأنه جاء من الله.. أيد الله رسله بمعجزات تؤكد صدق بلاغهم عن الله.. وهنا حدث الجدل في المنهج.. فقد وجد ناس مترفون لا يريدون أن يقيدوا أنفسهم بمنهج عدل.. فهم يستعبدون الناس.. ويأخذون الخير كله ويتركون لهم الفتات.. وهم يعيشون حياة بذخ وترف على حساب حقوق الآخرين.. وهذا جعلهم يقفون ضد منهج الله.. لأنه يساوي بينهم وبين أتباعهم.. ويسقط عنهم الميزات فيصبح السيد كالعبد.. هنا حدث الجدال ومقاومة الرسل.

ولكن منهج الله كان يحمل الدليل معه على صحته.. أولاً لأنه جاء بقضية الألوهية المحسومة بالأدلة المادية.. وثانياً لأنه طلب من الناس أن يتأملوا في خلق الله ليروا إعجازه.. فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر].

فكأن الله يلفتنا في هذه الآيات إلى مقومات حياة الإنسان وكيف أن الإنسان لم يوجد مقومات حياته على الأرض.. فالله أنزل من السماء الماء أو المطر.. وهذه عملية تتم بالبخر من البحار.. من صعود بخار الماء إلى السماء ثم تكثفه على هيئة سحاب.. وهذه عملية لا يقدر عليها بشر.. والزرع الذي يخرج من الأرض ثمرته الأولى.. من الله.. والجبال التي تختلف ألونها جعلها الله مخازن للمعادن المختلفة.. والدواب

والأنعام والإنسان كلها من خلق الله.. ثم يقول الحق: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا ﴾ [فاطر: ٢٨].

لأن العلماء لابد أن يكونوا أشد الناس خشية لله وهم يدققون ويبحثون في أسرار الخلق، ويرون الإعجاز الإلهي.. وليس ذلك فقط.. ولكن الله طلب منا أن نتأمل في خلقه وفي آياته فى الأرض.. فقال سبحانه وتعالى عن الزرع مثلاً: ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ونظرة إلى الثمر ترينا مدى إعجاز الخلق.. فالله خلق لنا ما يؤكل كله كالتفاح.. وما يؤكل بداخله ولا تؤكل القشر مثل البطيخ والبرتقال.. وما يؤكل جزؤه العلوي ويترك قلبه مثل الخوخ والمشمش.. وما ينزع غلافه بسهولة مثل اليوسفي.. وما له غلاف صلب مثل الجوز واللوز والبندق.. وما يعصر ولا يؤكل وإنما يؤخذ ماؤه مثل الليمون.. وهكذا نرى إعجاز الخلق فى الثمر.. والحق سبحانه وتعالى حين يطلب منا أن نتأمل ذلك وننظر إليه جيدا نعرف أنها قضية حق.. لماذا؟ لأن الذي يريد أن يغش لا يطلب منك أن تفحص الشيء جيدا.. بل يحاول أن يلهيك عن التأمل.. فأنت إذا دخلت محلاً لتشتري قطعة قماش.. وكانت هذه القطعة فيها عيب.. البائع لا يعطيها لك ويطلب منك أن تتأملها جيدا.. بل يحاول أن يبعد انتباهك عنها حتى لا ترى العيب. ولكن إذا طلب منك البائع أن تتأملها جيدا وتفحصها مرات ومرات فلابد أن هذه القطعة من القماش جيدة الصنع ولا عيوب فيها فهو يحاول أن يجعلك تحس وتعرف يقيناً جودتها.. والحق سبحانه وتعالى طلب منا أن نتأمل آياته فى الكون لأنها حق.. وكلما تأملناها ازددنا علما بإعجاز الله في كونه.. إذن كل آيات الكون دليل لا يكذب على قدرة الخالق سبحانه وتعالى.

حينما جاءت الرسالات.. وجاءت معها المعجزات التي تؤيد الأنبياء.. والمنهج الذي يساوي بين الناس.. كان أول من تصدى لهذه القضية هم أصحاب النفوذ والمترفون.. لأنها تسلبهم ميزاتهم.. ولكنهم لم يكونوا يستطيعون إنكار قضية الألوهية، إنها قضية ثابتة بماديات الكون.. فبدأوا يبحثون عن مخرج يعطيهم القضيتين.. قضية الألوهية.. وقضية الإبقاء على نفوذهم وظلمهم وطغيانهم ولم يجدوا حلاً إلا أن يوجدوا هم آلهة.. تحل لهم قضية الإيمان وفي الوقت نفسه تبقى لهم كل الميزات. فبدأ الشرك باختراع آلهة لا منهج لها.. أي لا تطلب من الإنسان شيئا.. فعبدوا الشمس وعبدوا القمر وعبدوا الأصنام.. واخترعوا آلهة كثيرة على مدى التاريخ البشرى كله.. ليبقى الظلم فى الأرض وأنشأوا لها معابد واخترعوا لها أسماء وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

ويقول جل شأنه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: ٤٠].

ولا يقولن أحد إن هذا محتاج إلى مدنية وإلى ارتقاء لم يكن موجودا عند خلق البشرية وفي قرونها الأولى.. فأمامنا آثار قدماء المصريين تعطينا ما وصل إليه الإنسان الأول من ارتقاء سريع فى الحضارة.

ولقد كان هؤلاء الناس لو أنهم تأملوا فى الكون.. لعرفوا أن ما يفعلونه هو زيف؛ لأنه لا الشمس ادعت أنها فعلت شيئا.. ولا الأحجار أرسلت لنا لتقول إنها خلقت شيئا.. إذن.. هذا كله إفك.

وجاءت الرسل بمنهج الله وهو قائم على الثواب والعقاب، فمن أحسن يثاب ويدخل الجنة ومن أساء يعاقب ويخلد فى النار.. ولم يكن هذا غريبا؛ لأن الكون لا يمكن أن يقوم على الثواب والعقاب.. من يرتكب جريمة يعاقب.. ومن يفعل شيئا حسنا يُثب عليه مما يرينا أن الثواب والعقاب هو سُنة الله في كونه بالنسبة للإنسان.. فلا يمكن أن يقوم مجتمع إنساني ويلغي الثواب والعقاب.. ومادام هناك ثواب وعقاب فهناك اختيار بشري.. الاختيار أتاحه الله لخلقه من الإنس والجن.. فمنهج الله قائم على أفعل كذا ولا تفعل كذا.. ومادام الله قد قال لك أفعل فأنت قادر على ألا تفعل.. وإلا ما كان للأمر معنى.. فكيف تقول للإنسان أفعل وهو لا يستطيع الفعل.. وكيف تقول له لا تفعل وهو لا يستطيع عدم الفعل.. إذن هناك اختيار بشري لابد أن يوجد حتى تطبق سياسة الثواب والعقاب.

ويتساءل بعض الناس عن أولئك الذين لم يؤمنوا.. ولكنهم قدموا خدمات جليلة للإنسانية.. نقول إن هؤلاء حينما عملوا لم يكن في بالهم الله ولم يكونوا مؤمنين به.. بل كانوا يريدون أن يخدموا الإنسانية.. أو أن يعلو صيتهم فى الدنيا.. أو أن يتكسبوا من هذا الاكتشاف مكاسب مادية.. ولذلك كان جزاؤهم من جنس ما عملوا من أجله، فخلدتهم الإنسانية ورصدت لهم الجوائز.. وخلدت أعمالهم فى الحياة الدنيا.. فجزاهم الله من جنس ما عملوا.. ولكنهم فى الآخرة ليس لهم من جزاء إلا النار؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يكن في حسابهم.. ومن البديهي والمنطقي أنك تأخذ جزاءك ممن عملت من أجله.. وهؤلاء لم يعملوا من أجل الله.. ولا آمنوا به إلها.. فمن العدل أن يأخذوا جزاءهم ممن عملوا من أجله.. سواء كان ذلك مجداً دنيوياً أو غيره.. والعجيب أن هناك أعمالا فى الدنيا ظاهرها الصلاح.. ولكنها غير مقبولة من الله.. كذلك الذي يذهب بماله إلى زوجة رجل ذي نفوذ ويعطيها المال لتنفقه في جمعية خيرية ترأسها.. ثم بعد ذلك يطلب منها أن ترجو زوجها أن يرقيه.. أو يوقع إذن الاستيراد الذي أمامه لصالح هذا الشخص.. أو أن يفرج عن بضائعه المصادرة من الجمارك.. هل يحتسب المال

الذي دفعه صدقة لوجه الله يجازى عليها يوم القيامة؟.. طبعا لا.. لأنه لم يقصد بها وجه الله.. وإنما قصد بها قضاء مصلحة دنيوية.. وقد تكون هذه المصلحة مما حرمه الله.. ولذلك فإن حكم هذا المال الذي أعطى زيفا باسم الصدقة هو حكم الرشوة.. وهو صدقة غير مقبولة.. كذلك الإنسان الذي يأتي الحرب ويقاتل ليقال عنه إنه متمرس في فنون القتال.. أو أنه قيمة عسكرية نادرة.. أو أنه قائد لا يشق له غبار.. إذا استشهد فلا جزاء له عند الله؛ لأنه لم يقاتل من أجل الله.. كذلك الذي يبني زاوية تحت عمارة يمتلكها ليعفى من العوائد.. أو يبني بدون رخصة.. أو يحصل على أي ميزة دنيوية لا يناله ثواب من هذه الزاوية أو هذا المصلى الذي بناه؛ لأنه لم يقصد به وجه الله.. وكل عمل لا يقصد به وجه الله لا يثيب الله عليه مصداقا لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به الله فعرفه نعمه عليه فعرفها. فقال له: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك يا رب حتى استشهدت. قال: كذبت. ولكنك قاتلت حتى يقال: جريء، وقد قيل.. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به الله فعرفه نعمه فعرفها فقال: فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت. ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم. وقرأت القرآن ليقال قارئ وقد قيل. وأمر به وسحب على وجهه فألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى الله به فعرفه نعمه فعرفها. قال: ما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها. قال: كذبت، ولكنك فعلت ذلك ليقال هو جواد، وقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه في النار»[1].

وهكذا نرى أن أي عمل لا يقصد به وجه الله.. لا يجازى عنه الله.. فإذا ذهبت إلى حفل خيري يجمع فيه المال.. وأعلن في الميكرفون أن فلانا رجل البر والتقوى والمحسن الكبير قد تبرع بمبلغ كذا للخير.. فاعلم أنه لا ثواب له؛ لأنه قصد السمعة ولم يقصد وجه الله.. وهكذا كل من يعمل وليس في قلبه الله، ولذلك إذا وضعت لافتة على باب زاوية أو مسجد وكتب عليها قام ببناء هذا المسجد رجل البر والتقوى فلان.. فاعلم أنه لا جزاء له في الآخرة؛ لأنه بناها للسمعة. وقد قيل في هذا إنه في إحدى الغزوات شاهد الصحابة رجلا يقاتل بشجاعة وجرأة نادرة.. فذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت يا رسول الله هذا المقاتل الجريء؟ إنه سيكون أسبقنا إلى الجنة.. فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل هو من أهل النار».. وتعجب الصحابة من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وكرروا السؤال.. فكان جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) رواه مسلم [١٩٠٥/ ١٥٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

«بل هو من أهل النار».. وجرح الرجل أثناء القتال فلم يتحمل الطعنة التي أصابته أمام الناس.. وكيف أنه وهو المقاتل الشجاع يجرح.. فأمسك بمقدمة سيفه ووضعها تحت ذقنه وضغط بقوة حتى نفذت مقدمة السيف من جمجمته فمات منتحرا.. فأسرع الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.. بعد أن انتحر هذا الفارس أمامهم.. وعرفوا أنه فى النار أسرعوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقالوا: نشهد أنك حقا رسول الله.. فقال صلى الله عليه وسلم: «لقد قاتل هذا الرجل ليقال شجاع وقد قيل»(١).

إذن.. فالحق سبحانه وتعالى أمرنا أن نبدأ وفي قلوبنا الله.. فإذا خطونا أعاننا بخطوات وإذا فعلنا حسنة ضاعفها إلى سبعمائة مثل، وإذا أردنا التوبة والعودة إليه أعاننا على ذلك.. ولكن المهم أن نبدأ وأن يكون في قلوبنا ذلك الإيمان الذي يدفعنا إلى الطاعة.. فإذا أصررنا على المعصية تركنا الله لما نصر عليه ولم يعنا على تجنب وسوسة الشيطان.. ولذلك فقد أعد الله سبحانه وتعالى لكل واحد من خلقه مقعدا فى النار ومكانا فى الجنة.. وفي ذلك حكمة كبرى من الله سبحانه وتعالى.. فعندما يموت الإنسان إن كان عمله صالحا يرى مقعده من الجنة ثم يرى مقعده من النار.. ليعرف كيف نجاه الله من عذاب رهيب.. وتكون فرحته بالنجاة من النار فرحة عظيمة.. لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. الفوز هنا فوزان.. النجاة من النار ولو إلى الأعراف نعمة كبرى.. ودخول الجنة نعمة أخرى أكبر.

إذن.. فالحق حدد لنا فعل الاختيار فى الدنيا.. فهو لم يخلقنا مختارين على إطلاقنا.. ولكنه خلقنا مختارين فى المنهج وحده.. في أفعل ولا تفعل أما باقي حياتنا فيما يقع علينا من أحداث فنحن مقهورون فيها.. مقهورون فى المرض والصحة.. مقهورون فى القوة والضعف.. مقهورون في كل ما يحدث لنا وليس لنا دخل فيه.. حتى أن أجسادنا ثلاثة أرباعها مقهورة لله.. والربع الباقي أخضعه الله لنا بتسخير منه وليس بقدرة منا.. وبعد أن يبين لنا الحق سبحانه وتعالى منهجه فى الإصلاح فى الأرض طلب منا ألا نفسد فيها.. ولكننا أفسدنا لجهلنا.. فقطعنا الأشجار التي هي الرئة التي نتنفس بها.. وملأنا الجو بالتلوث من المصانع.. وصرفنا الكيماويات فى الأنهار فلم تعد مياهها صالحة للشرب.. واعتقدنا أننا بالعلم نستطيع أن نحسن خلق الله.. فاخترعنا المبيدات ونحن نحسب أننا نصلح فى الأرض ونقضي على الآفات.. فقضينا على الأعداء الطبيعية لهذه الآفات وأصبحت الآفات أشد فتكا؛ ولكن أكبر مصيبة أنه توهم أنه لن يستطيع أن ينظم هذا الكون أكثر مما نظمه الله فترك شرع الله وبدأ يشرع لنفسه فظلم نفسه وملأ الدنيا بالشقاء والآلام.. وسيطرت نزواته على هذا الكون.. فضاع منه العدل.. وامتلأ بالصراع.. والصراع فى الدنيا لا يكون بين حق وحق؛ لأن الحق واحد.. فلا يوجد

(١) رواه أحمد فى المسند [٤/ ١٣٥] وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

حقان.. ولكن الصراع فى الدنيا.. إما أن يكون بين حق وباطل.. وفي هذه الحالة ينتهي سريعا؛ لأن الله ينصر الحق ويزهق الباطل، وإما أن يكون بين باطل وباطل.. وفي هذه الحالة لا يعين الله باطلا على الباطل.. بل يترك الطرفين كل لما يستطيع أن يعده لفنون القتال.. فيطول الصراع ويبقى فترة طويلة دونما أن يستطيع أي من الطرفين أن يحقق نصرا حاسما.. وفي هذه الحالة يعاني البشر من شرور الباطل معاناة لا تنتهي.

وبذلك نكون قد وصلنا إلى أن الحب من الله عدل؛ لأنه أعطانا الحرية في أن نطيع المنهج أو نعصاه.. فهو لا يريدنا أن نأتي إليه مقهورين.. ولكن أن نأتي إليه عن حب وود.. وقد كتب الله على نفسه أن يعيننا على طريق الإيمان ما بدأناه.. وأن يلفتنا إلى قوته وقدرته حتى نتجه إليه بالتوبة.. وأعد لكل منا مكاناً فى النار ومكاناً فى الجنة.. وفى الآخرة يرث المؤمنون الأماكن التي أعدت للكافرين فى الجنة لو كانوا التزموا منهج الطاعة.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

إخفاء موعد الموت.. وعلاقة الإنسان بالقيامة

علاقة الإنسان بالقيامة تختلف باختلاف مراحل الحياة.. فهو فى الحياة الدنيا محجوب عن كل ما سيحدث يوم القيامة.. فإذا مات أبصر أشياء وحجبت عنه أشياء.. فإذا بعث رأى كل شيء عين اليقين.. أي لمسه وعاشه كواقع وحقيقة.. والله سبحانه وتعالى أخفى عنا موعد الأجل.. وفي ذلك حكمة ورحمة.. أما الحكمة فإننا نتوقعه في كل لحظة.. وننتظر أنه سيحدث في كل ثانية، فنحن لا نعرف متى الموت.. ولكن كل منا يمكن أن يأتي أجله في أي لحظة.. وهذا يضع في الإنسان المؤمن نفسه الخير.. فمادام لا يعرف متى يلقى الله.. فإنه يسارع فى الخير.. ويغتنم فرصة اليوم ليفعل كل ما يستطيع من الخير.. حتى إذا لم يعش، فقد يكون قد أخذ الثواب.. والمسارعة فى الخير تعود على الناس كلهم.. فكلما فعل الإنسان خيرا انتفع به المجتمع كله.. وهكذا يريد الله سبحانه وتعالى منا أن نسارع فى الخيرات.. هذه واحدة.

أما الثانية.. فهي أن نبتعد عن المعاصي.. لأننا لا نعرف ما إذا كان الأجل سيمتد بنا حتى نتوب أم لا.. فلا نرتكب المعاصي خوفاً من أن يكون الأجل قد اقترب.. فنلقى الله ونحن على معصية فنعذب فى النار.. إذن إخفاء موعد الموت عنا هو إعلام به أولا لأننا نتوقعه في أي لحظة.. وهو دفع لنا إلى الخيرات وبعد لنا عن المعاصي، هذه هي الحكمة، أما الرحمة فهي أننا لو عرفنا موعد أجلنا لظللنا طوال عمرنا في هم.. ذلك أنه عندما تتوقع بلاء سيحدث لك.. فإنك تعيش في هم عميق وأنت تنتظره.. وفي كل يوم ستقول لم يبق لي على الأرض إلا كذا.. لم يبق لي لأترك أولادي إلا كذا.. سأترك أولادي صغارا لا يستطيعون مواجهة الحياة.. وهكذا تبقى في هم وغم طوال حياتك. ولذلك رحمة من الله.. أخفى عنا موعد الموت.. لنستطيع أن نقبل على الحياة بأمل أننا سنعيش.. بل إن الإنسان يحلم بأنه سيفعل كذا وكذا فى العام القادم أو الذي يليه.. وربما يكون أجله بعد أسبوع أو أسبوعين.. ولكن هذا الأمل فى الحياة يجعله يبني ويعمل وينفق مما يفيد المجتمع كله.. فأي بناء فى الأرض مهما كان هدفه يفيد المجتمع؛ لأنه يفتح أبواب الرزق للناس كل الناس.. فأنا حين أبني عمارة فقد استفاد من مالي من حفر ومن وضع الحديد ومن قام بأعمال البناء والنجارة والبياض إلى آخره.. كل هؤلاء استفادوا.. فكأنني أعطيت حركة الحياة للمجتمع بصرف النظر عما أخذت.

إذن.. فلفائدتي ولفائدة المجتمع أخفى الله موعد الموت.. ولكن نعرف يقيناً أننا

سنلاقيه في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨].

ويقول أهل التصوف إن سهم الحياة وسهم الموت ينطلاقان معا.. وأن ملك الموت يظل يبحث عن ذلك المكلف بقبض روحه.. فلا يجده ولا يعثر عليه إلا ساعة الأجل.. ففي هذه الساعة يلتقي ملك الموت مع ذلك الذي انتهى أجله.. ولكن قبلها لا يلتقيان أبدا.. وقوله تعالى: ﴿ تَفِرُّونَ مِنْهُ ﴾؛ لأن الإنسان إذا رأى شبهة الموت في أي عمل.. كأن يكون في هذا العمل خطورة قد تؤدي به إلى الموت فإنه يهرب منه.. ولكن هذا الهروب لا ينجيه إذا جاء أجله.

ومع أن موعد الساعة لا يرتبط بحياة الإنسان الدنيوية.. لأن الذي ينتقل من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ.. التي هي بين الموت والقيامة. يرى أشياء كثيرة هي غيب عنه.. ويوقن، مؤمنا كان أو كافرا، بالساعة.. فإن السؤال الدائم على لسان البشرية كلها.. هو: متى تقوم الساعة؟ ربما إحساسا منا بهول هذا اليوم.. وربما لأنه نهاية حياة وبداية حياة أخرى تماما.. ولذلك فقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موعد الساعة.. فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

المسئول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.. والذين سألوه هم اليهود.. فهم الذين كانوا يريدون أن يتحدوا رسول الله صلى لله عليه وسلم بما في كتبهم وعلمهم.. فسألوه عن الساعة وعن الروح وعن ذي القرنين.. وجاءت الإجابة من الله سبحانه وتعالى مطابقة لما عندهم فى التوراة وزيادة عليه، فعندما سألوه مثلا عن أهل الكهف جاء الله سبحانه وتعالى مصححا لهم الزمن الموجود فى التوراة.. فقال لهم: ﴿ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥].

وعندما بحثوا من أين جاءت التسع.. علموا أن الفرق بين التاريخ القمري والتاريخ الشمسي.. فالله سبحانه وتعالى يؤرخ لكونه بأدق الحسابات.. ولذلك فإن التوقيت العربي هو أدق الحسابات.. فكل عالم البحار يؤرخ بالهلال.. وحسابات التاريخ الدقيقة تؤرخ بالهلال.. ونحن نحسب الشهر بالهلال؛ لأن الشمس لا تدلنا على حساب الشهور.. وإنما الشمس دلالة يومية على الليل والنهار.. أما القمر فنعرف منه أول الشهر ووسط وآخره والثلثمائة سنة الشمسية تزيد عن القمرية بتسع سنوات.

وعندما سأل اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موعد الساعة.. طلب الله من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

أى إنها غيب وستظل غيبا لا يطلع عليه أحد ولا يعرف وقتها أحد.. حتى أنه قيل إن إسرافيل وهو الملك المكلف بأن ينفخ فى الصور.. لكي تقوم الساعة.. لا يعرف موعدها.. وأنه يقف في حالة استعداد مستمر.. حتى إذا أتاه أمر الله قام بالتنفيذ فى التو

واللحظة.. وحتى الملائكة المقربون لا يعرفون موعد الساعة؛ لأن الله اختص نفسه بها.. ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. يجليها، أي: يظهرها.. وهناك الجلوة والخلوة، الجلوة، هي الظهور، والخلوة هي الاختفاء. وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لِوَقْتِهَآ ﴾ هذه لام التوقيت.. تماما كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء: ٧٨].

ومعنى دلوك الشمس، أي: أنها تتجاوز نصف السماء.. إذن قوله تعالى: ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ ﴾، أي: لا تظهر إلا إذا جاء وقتها.. وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾، أي: أن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي سيظهرها.. ولن يعرف بها حتى أقرب الملائكة المقربين إلى الله إلا ساعة تظهر.. ثم يقول الحق: ﴿ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

ما معنى: ﴿ ثَقُلَتْ ﴾؟ أي: أن الكتلة أكبر من الطاقة التي تحملها.. فأنت حين تحمل شيئا أقل من قوة عضلاتك.. يقال هذا الشيء خفيف.. وعندما تحمل شيئا مساويا لقوة عضلاتك يكون هذا الشيء عاديا.. فإذا كان أكبر من قوة عضلاتك يكون ثقيلا؛ ولكن هل الثقل لا يكون إلا فى الأمور المادية؟ أم أنه يكون ثقلا فكريا وعقليا؟ يعني عندما تعطي طالبا فى السنة الأولى بكلية الهندسة تمرينا مقررا على السنة الرابعة.. يقال لك هذا التمرين ثقيل على طاقة عقله لا يستطيع العقل أن يحله.. هذا ثقل فكري.. وهناك ثقل معنوي مثل الهم.. وهذا أقسى أنواع الثقل؛ لأنك يضيق صدرك عن أن تحمله.. فهو ثقل نفسي ولذلك يقال: إنه ليس الثقل ما حمله الظهر.. ولكن الثقل ما ضاق به الصدر.

إذن.. فعندنا ثلاثة أنواع من الثقل.. ثقل مادي.. وثقل فكري.. وثقل نفسي.. قيام الساعة أي نوع من هذه الأثقال الثلاثة؟ إنها الأنواع الثلاثة كلها.. فالساعة ثقيلة ماديا.. وثقيلة معنويا وثقيلة نفسيا.. الثقل المادي هو على الأشياء المادية فى الكون.. فالأرض والشجر والجبال وكل ما في هذا الكون مقهور لله سبحانه وتعالى.. وهو مقهور على الطاعة.. مسبح لله في كل وقت.. وعندما ترى كل هذه الأشياء.. الإنسان الذي يأخذ خيرها والذي تخدمه وهو يعصي الله سبحانه وتعالى ويكفر به ويفسد في كونه.. تتميز هذه الأشياء من الغيظ.. فالأصنام تلعن من يعبدها.. وتتمنى لو أن الله أعطاها المقدرة لتفتك به.. والشمس التي تعطي من ضوئها وأشعتها للكافر وتخدمه عملية ثقيلة على نفسها.. وهي تتمنى أن يأذن لها الله بأن تحرق هذا الكافر العاصي.. والبحار وهي تخدم الإنسان تتمنى من الله أن يأذن لها أن تغرق الكافر وتمحوه من الوجود جزاء على كفره.. وكذلك كل شيء فى الدنيا من الماديات.. كلها مسبحة لله.. وكلها تتميز غيظا.. وكلها تتمنى غيظا.. وكلها تتمنى أن تأتي يوم القيامة فيحاسب فيه الكافر على كفره.. ولا يقول أحد إن المادة ليست لها عاطفة.. بل المادة لها عاطفة.. وعاطفة راقية

وإن كنا لا نفهمها.. واقرأ قول الحق سبحانه: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ۝﴾ [الدخان].

إذن.. السماء تبكي.. والأرض تبكي.. ومعنى ذلك أن لهما عاطفة، عاطفة راقية.. ويقال إذا مات العبد الصالح بكى عليه موضعان.. موضع سجوده في الأرض وموضع رفع عمله في السماء.. وهكذا نرى المادة لها عواطف.. وأنها تكره العاصين والكافرين.. ويثقل عليها أن تكون في خدمتهم.. ولذلك فهي تتعجل، والوقت يمر ثقيلا عليها.. لأنها تريد أن ترى ابن آدم هذا الذي كفر بالله وبنعمه وهو يجازى على كفره.. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «ما من يوم تطلع شمسه إلا وتنادي السماء تقول: يا رب ائذن لي أن أسقط كسفاً على ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك. وتقول البحار: يا رب ائذن لي أن أغرق ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك.. وتقول الأرض: يا رب ائذن لي أن أطبق على ابن آدم، فقد طعم خيرك ومنع شكرك. فيقول الله تعالى: دعوهم. دعوهم. لو خلقتموهم لرحمتموهم. إنهم عبادي. فإن تابوا فأنا حبيبهم. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم».

أما الثقل المعنوي.. فهو في السماء.. فالملائكة الذين سجدوا لآدم وهم الموكلون بمصالحه وبحياته.. الذين سخرهم الله لخدمته.. فمنهم الحفظة وغيرهم.. هؤلاء يثقل في صدورهم ما يفعله الإنسان من معاصٍ وكفر بالله.. وهم يرون الكافرين يسخرون من المؤمنين.. يتمنون لو تأتي الساعة لينال هؤلاء جزاءهم.. هذا بالثواب وهذا بالعقاب.. ولذلك فإن الملائكة يحملون هذا الثقل المعنوي وهم يرون الفساد في الأرض ويتمنون أن تأتي الساعة ليظهر الحق وينال العاصون والكافرون جزاءهم.. والساعة ثقيلة على النفس؛ لأن الناس تخشاها.. فهي ثقيلة على المؤمن الذي يستبطؤها ويريد أن يصل إلى الثواب وإلى الجنة.. وهي ثقيلة على الكافر نفسه؛ لأنه يخشى ما سيقابله فيها من عذاب.. ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾ [الحج].

صورة مخيفة.. تلقى الرعب والهلع في النفوس.. وتكون ثقيلة نفسيا.. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

أي إنها لا تحدث إلا فجأة.. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده إن الساعة لتهيج بالناس حتى تأتي للرجل وهو يصلح حوضه وتأتيه وهو يعلف ماشيته وتأتيه حينما يتناول لقمة فلا يمكنه أن يدخلها فمه».

وهكذا نرى أن الساعة من هولها ثقيلة؛ ثقيلة على الكون، ثقيلة على الناس، ثقيلة

على الملائكة. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾.

وحفى من الحفاوة.. وحفى هو الذي يلح في طلب الأشياء.. فالتلميذ مثلاً حين يقرب الامتحان ويكون عنده سؤال لا يعرف إجابته.. يسأل كل أساتذته فهو حفى بالسؤال يلح فيه ليحصل على الإجابة.. وكلها من مادة الحفاء.. والإنسان في شؤونه إما أن يعالجها وهو مستقر في مكان مستريح.. وإما ان ينتقل وراءها من مكان إلى آخر ليقضيها.. فإذا انتقل وراءها من مكان إلى آخر استهلك النعل الذي يلبسه ويصبح حافياً.. لذلك يقال فلان حفى حتى وصل إلى هذا الأمر.. أي قام بانتقالات كثيرة حتى أصبح كالحافي أن نعله ذاب.. ويطالب الله جل جلاله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول لليهود الذين سألوه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾.

يعود ليؤكد أن الله سبحانه وتعالى قد اختص بها نفسه.

على أننا ونحن نتكلم عن موعد الساعة.. لابد أن نتعرض للآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝ ﴾ [طه].

ما معنى: ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾.. ولماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى أخفيها.. قوله تعالى: ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾.. معناها أنه يبديها بالتدريج، إذن.. حتمية قيام الساعة الله يبديها، ولكن موعد قيام الساعة الله يخفيه.. كيف؟

❁ ❁ ❁

obeikandl.com

العرض على اللّه.. والشفاعة

بعد ذهاب الناس إلى أرض الميعاد حيث الحساب والعرض.. تكون الشمس في أرض الميعاد قريبة من رؤوس الناس.. حتى أنهم يعرقون بشدة.. ويشتد الكرب عليهم ويطلبون الحساب.. ويبحثون عمن يتجهون إليه ليشفع لهم عند اللّه.. فيتجهون أول ما يتجهون إلى آدم عليه السلام؛ لأن اللّه خلقه بيده وأسجد له ملائكته وعلمه كل شيء ويطلبون منه أن يشفع لهم عند اللّه حتى يريحهم مما هم فيه.. فيذكر لهم آدم خطيئته فى الأكل من الشجرة.. فيتجهون إلى نوح عليه السلام باعتباره أول الأنبياء ليشفع لهم فيذكر لهم خطيئته بالنسبة للشفاعة لابنه وهو كافر.. فيتوجه الناس إلى إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن.. فيذكر لهم خطيئته فى الاستغفار لأبيه.. فيأتون موسى عليه السلام كليم اللّه.. فيذكر لهم خطيئته في قتله نفساً بغير عمد في خلال مشاجرة حدثت قبل أن يهاجر إلى مدين.. ثم يتوجه الناس إلى عيسى عليه السلام رسول اللّه وكلمته فيقول لهم عيسى عليه السلام: اذهبوا إلى محمد فقد غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. فيأتون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيقبل أن يشفع لهم.

وقبل أن نمضي فيما سيحدث لابد أن نعرف معنى الشفاعة.. الشفاعة أن يكون إنسان له شيء أو يطلب شيئاً فلا يقبل منه.. فيأتي بمن هو أقرب منه عند المشفوع لديه.. إذن فالشفاعة لابد أن تتم بواسطة اثنين.. ولذلك فإن الشفع زوج والوتر واحد.. وفى الشفاعة هناك شافع ومشفوع له ومشفوع عنده ومشفوع فيه.. ففي دنيانا إذا كان لي مصلحة عند إنسان لا أستطيع أن أقضيها.. أبحث عن شخص ذي مكانة ليشفع لي عند من بيده قضاء الحاجة.. إذن فالشخص الذي يشفع لي لابد أن يكون له مكانة لدى المشفوع عنده.. هذه الشفاعة فى الدنيا.. أما الشفاعة فى الآخرة فإن الذي بيده المُلك هو اللّه مباشرة وبدون أسباب.. إذن لابد لمن يشفع أن تكون له منزلة لا عند الملائكة ولا الأنبياء.. ولكن عند اللّه سبحانه وتعالى وحده.. لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾

أي بإذن من اللّه وحده تتم الشفاعة.. إذن لابد أن يكون هناك إذْنٌ من اللّه قبل أن تُطلب الشفاعة.. وأن تكون منزلة من يشفع عالية جدا عند الحق سبحانه وتعالى.. لدرجة أن الحق سبحانه وتعالى يقبل منه الشفاعة لغيره.. فرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في هذا الموقف لا يشفع لنفسه ولكنه يشفع لغيره.. يشفع لخلق اللّه جميعاً مؤمنهم وكافرهم.. فلرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم شفاعتان فى الآخرة.. شفاعة عامة للإنسانية كلها..

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فرسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين فى الدنيا.. بأن أبلغهم منهج الله الذي ينجيهم من النار ويدخلهم الجنة.. ورحمة للعالمين فى الآخرة في أنه يشفع لهم عند الله سبحانه وتعالى من موقف الهول الذي يقفونه في انتظار الحساب فتقبل شفاعته.

والشفاعة الثانية هي لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته. ومكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه تؤهله لهذه الشفاعة فهو خاتم المرسلين.. لا رسول بعده.. وهو مرسل للعالمين.. أي للدنيا كلها.. وليس إلى قومه فقط.. ورسالته صلى الله عليه وسلم هي الباقية.. إلى يوم القيامة.. وهو صلى بالأنبياء إماما.. والله سبحانه وتعالى أشهد الأنبياء على رسالته في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

الناس كلهم في كرب.. تطول وقفتهم في انتظار الحساب حتى يتمنوا أن يُصرفوا ولو إلى النار.. كأن انتظار الحساب أشد هولا من العذاب.. حينئذ يتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم للشفاعة عند ربه.. وتكون شفاعته أن يفصل الله بين الناس، كل الناس، منذ عهد آدم حتى قيام الساعة، أي: أن شفاعته في هذا الموقف قد شملت العالمين.

الله تبارك وتعالى في بداية الحساب يأمر أن يكون كل إنسان مع ما عبد.. أي مع من اتخذه إلهاً.. فيتفرق الناس حسب من عبدوهم.. يتجه عبدة الأصنام إلى الأحجار التي عبدوها.. وعبدة الشمس يتجهون إلى الشمس.. والذين عبدوا الشياطين يتجهون إلى ما عبدوه.. واليهود الذين عبدوا عُزيرا وادعوا أنه ابن الله يتجهون إلى الشياطين التي سولت لهم ذلك.. والذين عبدوا عيسى ابن مريم وأمه يتجهون إلى الشياطين التي أوحت لهم بذلك.. كل فئة تقف مع الإله الذي عبدته من دون الله.. سواء كان الإله أحجارا أو ملائكة أو رسلا.. أو خلقا من خلق الله كالشمس والقمر والنجوم.. ويبقى الذين عبدوا الله وحده معاً.. والذين أشركوا بالله مع ما أشركوا فالله أغنى الشركاء عن الشرك.. ولا يقل أحد إن إنسانا سيستطيع الخداع في هذا الموقف.. أى إنه مثلا يكون من عبدة الأصنام ويقف مع الذين عبدوا الله.. لأنه في هذا الموقف انتهت سيطرة الإنسان تماما على جوارحه ولم تعد له ذاتية.. بل أصبحت هذه الجوارح تتلقى أوامرها من الله مباشرة.. ولذلك فإن أقدام هؤلاء الذين أشركوا بالله أو عبدوا غير الله ستتجه بهم إلى ما عبدوا رغم إرادتهم وبدون أمر منهم.. فلا يعتقد أحد أنه يستطيع في هذا الموقف أن يخدع الله.. أو أن يقف في مكان غير مكانه.. الخلق كلهم سيفترقون كل مع الإله الذي عبد.. وبعد أن يتم ذلك يبدأ سؤال الأنبياء عن صدق بلاغهم للناس عن منهج الله سبحانه

وتعالى.. هل بلغوا أم لم يبلغوا؟.. فتأتي الشهادة بأنهم بلغوا.. وهنا يعطينا القرآن الكريم مشهد عيسى ابن مريم وتبليغه عن الله فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

هذا مثل لشهادة التبليغ من الرسل وبأنهم قاموا بالتبليغ بمنهج الله كما نزل من السماء.. والله أعلم بصدق بلاغ رسله.. ولكن ليكون حساب من انحرفوا عن المنهج عدلا.. وليكون هؤلاء الذين انحرفوا بالمنهج شهداء على أنفسهم.. فلا يستطيعون أن ينكروا ولا أن يدعوا أن هذا التحريف هو من فعل الرسل أو من بلاغهم.

وعندما يقول الحق لعيسى عليه السلام هذا الكلام.. يأتي جواب عيسى منكرا على الذين قالوا هذا القول أنهم مبلغون عنه.. فيقول: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ويبدأ كلام عيسى بأن ينزه الله سبحانه وتعالى من أن يكون هناك معبود سواه فيقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾.. أي تنزهت وتعاليت عن أن يكون هناك معبود غيرك في هذا الكون.. ثم يؤكد عيسى صدق بلاغه عن الله فيقول: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾، أي: أن عيسى يقول يا ربي خلقتني على الصدق.. فكيف أتجاوز مرحلة الكذب إلى مرحلة الادعاء.. وهي أن أدعي حقا ليس لي.. ثم يلمس عيسى من الله الشهادة فيقول: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾.

أي: أنك يا ربي تعلم كل ما نطقت به.. فإذا كنت قلت مثل هذا الكلام فلابد أنك علمته.. وإن كنت أخفيته في نفسي ولم أقله ولكنني اعتقدت به ولم أظهره لأحد فأنت يا ربي علمته أيضاً لأنك يا ربي: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

ثم يعطي عيسى عليه السلام البيان الحق لما قاله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وهكذا نجد في القرآن الكريم صورة لما سيحدث يوم القيامة من شهادة الرسل على أنهم بلغوا عن الله.. وكانوا صادقين في بلاغهم.. ويتم هذا قبل أن يبدأ الحساب حتى تكون المحاسبة قد سبقها بلاغ الرسل.. ووصول هذا البلاغ إلى الواقفين في يوم الحشر ليحاسبوا وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وليشهد كل من في يوم الحشر على صدق بلاغ الرسل.

وبعد أن تنتهي شهادة الرسل بأنهم بلغوا.. يبدأ الحق سبحانه وتعالى يسأل الأشياء التي اتخذها الكفار آلهة من دون الله.. وهل هذه الأشياء هي التي ادعت الألوهية؟ أم أن الكفار هم الذين اختاروا آلهة لينفذوا أهواءهم.

وأول ما يسأل الله سبحانه وتعالى الملائكة.. يقول الحق سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ].

وهكذا يتبرأ الملائكة من هذا الاتهام وينزهون الله سبحانه وتعالى من أن يكون هناك معبود غيره فيقولون: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾.. أي تباركت وتعاليت وتنزهت من أن يُعبد غيرك في هذا الكون.. ثم تقول الملائكة: أنت يا ربي إلهنا ونحن مقهورون على طاعتك لا نملك المعصية.. ولم نقل لهؤلاء الكفار اعبدونا.. بل لم نكن ندري شيئا عن عبادتهم لنا.. وكيف نفعل ذلك ونحن نسبح لك بالليل والنهار.. ويأتي الحق سبحانه وتعالى بالشمس والقمر والنجوم والجبال والحجارة وكل ما عبد الناس من دون الله.. ويسألهم هل أنتم قلتم لهؤلاء اعبدونا من دون الله؟ وهنا يرد الجميع كل بدوره.. وكل شيء يوم القيامة سيتكلم لأن الله سينطق كل شيء.. سينطق الحجارة والشمس والماء وكل ما في الكون.. يقول هؤلاء جميعاً كل بدوره يا رب نحن لم نقل لهم شيئا.. نحن أعبد لك منهم ونحن نسبحك لك ليل نهار.. ونحن مقهورون على طاعتك.. سلهم يا رب أي رسول أرسلناه إليهم ليبلغهم عن ألوهيتنا.. أو أي منهج بلغناه لهم ليطبقوه في عبادتنا.. لا شيء يا رب.. فلا الشمس أرسلت رسولاً إلى الناس تقول لهم اعبدوني.. ولا القمر أعد منهجاً لعبادته.. ولا الأحجار ادعت أنها آلهة لابد أن يسجد لها.. بل كل هذه المخلوقات عابدة مسبحة لله تلعن الإنسان الكافر وتتمنى أن تفتك به.. وتتم هذه المواجهة أمام خلق الله جميعا.. وخصوصا أولئك الذين عبدوا الأشياء حتى يكونوا شهداء على أنفسهم بشهادة الآلهة التي عبدوها أنها لم تدع الألوهية ولم تطلب منهم أن يعبدوها.. وأنهم هم الذين اخترعوا هذا الزيف ليتبعوا شهواتهم وأهواءهم.. وهم الذين عبدوا هذه الآلهة ادعاء وكفرا فاستحقوا العذاب؛ لأن الذنب من أنفسهم والرغبة من داخلهم.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وهكذا وأمام كل خلق الله تعلن كل المخلوقات التي اتخذها الإنسان زيفاً آلهة أنها لا علم لها بذلك.. وتقول عبدونا ونحن أعبد لله من القائمين بالأسحار.

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى إلى الذين أشركوا ويسألهم أين شركاؤكم.. أي إنه يأتي للمشركين ويطلب منهم أن يأتوا له سبحانه وتعالى بأولئك الذين أشركوهم في الألوهية.. ويعطينا القرآن الكريم عدة صور لسؤال هؤلاء المشركين في الآخرة.. فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: ٦٤].

هاتان الآيتان تبينان لنا موقف الذين أشركوا بالله يوم القيامة.. يسألهم الله أين شركاؤكم؟ أحضروا ما أشركتم به فيلتفتون يمينا ويسارا ولا يجدون شيئا.. فينقسم ردهم إلى قسمين قسم يكذبون على أنفسهم وهم يعتقدون أنهم يكذبون على الله تعالى.. فيقولون: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

أي: أنهم يكذبون على أنفسهم ويحسبون أنهم أفلتوا.. ولكن الله يعلم أنهم كاذبون.. ثم بعد ذلك تشهد عليهم ألسنتهم بأنهم نطقوا الكذب.. أما القسم الآخر فيبحثون عن شركائهم يمينا ويسارا فلا يجدون شيئا ولا يجدون أحدا.. فيقولون: ﴿ ضَلُّوا۟ عَنَّا ﴾.. أي تاهوا منا لا نعرف مكانهم ولا يعرفون مكاننا.. ولو أن هؤلاء الذين زعموهم آلهة كانت لهم ألوهية أو شيء من الألوهية ما تركوهم في هذا الموقف.. وهكذا يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ويفضحهم أمام خلقه جميعاً.. وأمام أنفسهم حتى لا يستطيعوا المجادلة عند الحساب.. فلا يستطيع أولئك الذين حرفوا منهج الله أن يقولوا إن الرسل قد بلغونا المنهج محرفا وليس لنا ذنب حتى يحاسبنا الله.. أو يقول أولئك الذين عبدوا غير الله إن هذه الأشياء التي عبدوها هي التي ادعت الألوهية.. وأنهم لا ذنب لهم فيما حدث. بل يظهر أمام الجميع أن هؤلاء الكفار هم الذين حرفوا.. وهم الذين اخترعوا هذه الآلهة.. وهم الذين وضعوا منهجا على هواهم.. وأن المسألة كلها من أنفسهم.. وأنهم مسئولون عما اقترفوه وأن الحساب بالنسبة لهم عدل.

وبعد أن ينتهي سؤال الذين كفروا وأشركوا يبدأ سؤال المؤمنين.. والله سبحانه وتعالى حينما طلب من الذين يؤمنون بالله أن يتجمعوا معا.. تجمع كل من آمن بالله.. سواء الذين عصوا أو اتبعوا المنهج.. الذين فسقوا أو الذين أطاعوا.. كل هؤلاء تجمعهم وحدة واحدة.. هي أنهم قالوا لا إله إلا الله سواء عملوا بها أم لم يعملوا.. ولكنهم شهدوا لله بالوحدانية.. فهؤلاء يقفون معا.. منهم من سيدخل الجنة ليخلد فيها.. ومنهم من سيدخل النار ليعذب بقدر ذنوبه ثم تدركه رحمة الله فيدخل الجنة.. أي ليس بين الواقفين الذين قالوا: لا إله إلا الله من سيخلد فى النار.. بل سينتهون جميعا إلى الجنة.. ولكن منهم من سيدخل النار ليعذب بذنوبه، ولذلك لابد أن نعرف أن الله سبحانه وتعالى قد جعل للشهادة له وحده بالألوهية ثمنا.. فلا يخلد فى النار من شهد أنه لا إله إلا الله.. وإلا لما كان هناك فرق بين من آمن بالله ومن كفر به.. ولابد أن يكون هناك فرق.. ولذلك يدخل الذين آمنوا بالله وعصوه النار ليعذبوا بقدر معاصيهم وهنا يجب أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝ ﴾ [هود].

هذا الاستثناء الموجود فى الآيتين إنما وضع لمن آمنوا بالله وعصوه.. فمعنى

الاستثناء إخراج شيء مختلف عن شيء كان عاما.. فيقال قام القوم إلا فلانا.. أى إننا أخرجنا فلانا هذا الذي كان جالساً مع القوم من أنه قام معهم.. بل خالفهم فيما فعلوا.. أو أننا نفينا عنه ما فعلوه.. وإلا إما أن تنفي شيئا مثبتا.. أو تخرج من منفي فيثبت.. فإذا قلنا قام القوم إلا زيدا نفينا عن زيد القيام.. وإذا قلنا ما قام القوم إلا زيدا أثبتنا لزيد القيام.. الله سبحانه وتعالى حين يتكلم عن خلقه فى الآخرة يقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

إذن.. قسم الله الخلق إلى قسمين شقي وسعيد.. والله يريد أن يعطينا ما هو حكم الشقي وما هو حكم السعيد؟ الشقاء نوعان.. شقاء لأنه كفر وهذا هو شقاء القمة.. وشقاء لأنه آمن ولكنه أسرف على نفسه فلم يطع.. إذن هناك نوعان من الشقاء.. والنوعان مختلفان فى الجزاء.. وإلا لما كان لكلمة التوحيد جزاؤها فى الآخرة.. والسعادة أيضاً قسمان.. سعادة القمة لإنسان آمن وعمل كل العمل الصالح.. وسعادة لأن الإنسان آمن وعمل بعض العمل وترك بعض العمل.. إذن هناك من تركوا بعض العمل وسيغفر الله لهم برحمته.

نأتي للآية الكريمة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝﴾ [هود].

الذين شقوا شقاء الكفر خالدون فى النار من أولها لا يخرجون منها أبدا ولا يخفف عنهم العذاب.. والذين شقوا شقاء عصيان فى التكليف يدخلون النار أولا ليعذبوا بقدر ما عصوا ثم بعد ذلك يدخلون الجنة.. وهذا هو الاستثناء الذي عبر عنه الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.. والاستثناء هنا يكون من آخر العذاب.. أى إن الذين شقوا بالكفر أو بالمعصية يبدأون العذاب معاً.. ثم لا يخلد العاصون فى النار.. بل تدركهم رحمة الله سبحانه وتعالى فيخرجهم منها فى الجزء الأخير من العذاب ويدخلهم الجنة.. وبهذا يكون الخلود بالنسبة للمؤمن العاصي قد خدش من آخر العذاب.. أما بالنسبة للذين سعدوا.. السعادة الكاملة فهو أن يدخل المؤمن المطيع من أول يوم ويبقى خالدا فيها.

إذن.. فالذين لن يدخلوا الجنة من أول يوم هؤلاء أشقياء؛ لأنهم دخلوا النار فترة أولية.. فإذا كان الاستثناء فى الشقاء من آخره.. فإن الاستثناء فى السعادة من أول دخول الجنة.

وكما قلنا يقف المؤمنون الذين شقوا والذين سعدوا معا لأنهم جميعا آمنوا بوحدانية الله.. ويسألهم الله سبحانه وتعالى عن إيمانهم فيقول الجميع إنهم مؤمنون صالحون.. حينئذ يكشف عن ساق مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا

يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [القلم].

وإذا أردنا أن نفهم معنى هاتين الآيتين الكريمتين فلابد أن نعرف معنى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾.. العرب كانوا يستخدمون الكشف عن الساق تعبيرا عن الجد، وأنه لا هزل في هذا الموقف.. ذلك لأن الإنسان إذا أراد أن يعمل عملا جادا فيه مشقة.. فإنه يرفع الثوب ويكشف عن ساقيه حتى لا يعوقهما عن الحركة الجادة التي يتطلبها العمل.. ولذلك يعبر بالنسبة للمواقف الجادة بالكشف عن الساق.. يقال ساعتها كشفت عن ساقي وفعلت كذا.. وموقف القيامة هذا الذي نتحدث عنه هو موقف في غاية الجد.. فمعنى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾، أي: ساعة الحسم والجد.. حين يقول الجميع عبدنا وما عصينا.. يقال لهم اسجدوا لله فيسجد المؤمنون الطائعون وحدهم.. أما المؤمنون الذين عصوا فتكون ظهورهم ألواحاً من الخشب غير قابلة للانثناء ولا تمكنهم من السجود.. ويحاولون السجود جاهدين ولكنهم لا يقدرون، حينئذ يقال لهم: أنتم عصيتم ولذلك لم تمكنوا من السجود.. فيحاولون المجادلة فيقال لهم هل ترضون بشهداء عليكم؟ يلتفت هؤلاء يمينا ويسارا فلا يجدون أحدا من الذين سيشهدون فيطمعون ويقولون نعم نقبل الشهادة وهم يحسبون بذلك أنهم ناجون.. وإذا بجلودهم وأيديهم وأرجلهم وألسنتهم تشهد عليهم.. مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [فصلت].

حينئذ يحس هؤلاء المؤمنون العصاة بالخزي.. ويعبر الحق سبحانه وتعالى عن حالتهم بقوله تعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾.

ثم نعلم أن هؤلاء الذين لم يكونوا مواظبين على الصلاة متمسكين بها في أوقاتها من قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾.

هل كانوا يدعون إلى الصلاة في الدنيا وهم قادرون على السجود؛ لأن الدنيا دار تكليف.. ييسر للإنسان فيها الطاعة.. كما تيسر له المعصية.. هؤلاء كانوا يدعون إلى الصلاة.. إما بسماعهم الأذان أو بتذكيرهم مواقيت الصلاة وكانوا يقدرون على السجود.. ولكنهم لم يواظبوا على صلاتهم.

وعندما تنتهي كل هذه المشاهد يوضع الميزان ويبدأ الحساب.. والميزان هنا ليس ميزانا ماديا.. ولكنه ميزان حسي.. فعدل الله لا يحتاج لميزان مادي.. ذلك أننا في أمور الحق في الدنيا لا نزن العدل إلا بميزان معنوي.. وعندما يحكم القاضي بين الناس فإنه لا يأتي بميزان يضع فيه حجج هذا وحجج ذلك.. بل يزن الأمور ثم يصدر الحكم.. وقد سئل علي بن أبي طالب: كيف يحاسب الله الناس كلهم في وقت واحد؟.. قال: كما يرزقهم جميعا في وقت واحد.

هناك فى الحساب من لا يكلمهم اللّه، وهناك من ينساهم من رحمته، وهناك من لا يرون نور اللّه أبدا بظلمهم.. ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول: «من حوسب هلك»(١) ولكن كيف يستقيم هذا مع الآية الكريمة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝﴾ [الانشقاق].

نقول: إن الحساب اليسير الذي سيحاسب به بعض المؤمنين لا يعتبر حسابا، ولكنه عرض لرحمة اللّه.. وتوضيح لتجليات لطف اللّه على المؤمنين.. كأن يقال للمؤمن أنت فعلت كذا وكذا وقد غفر لك اللّه.. ولكن الحساب الحقيقي الذي يحدث فيه نقاش ومحاسبة إنما معناه أن صاحبه مستحق للعقوبة.. إن الحساب الذي ليس فيه مناقشة فإنه يكون يسيرا ويكون كله ثوابا ورحمة.. كأن تقول لإنسان عزيز عليك أنت فعلت كذا وكذا من باب العتاب الذي ليس فيه غضب ولا تقريع بل فيه تسامح.

أما من حقت عليه العقوبة من المؤمنين العاصين أو غير المؤمنين.. فإن حسابه يكون رهيبا.. والحساب يشتمل على ثلاثة أجزاء رئيسية.. جزء مدون فيه العمل الصالح للعبد.. وجزء مدون فيه المعاصي التي ارتكبها العبد.. وجزء مدون فيه نعم اللّه عليه؛ لأن النعمة تدخل فى الحساب.. ونعم اللّه عادة تَجُبّ كل العمل الصالح.. فإذا حوسب العبد بعمله الصالح فقط بدون رحمة اللّه وفضله.. فإن نعمة واحدة من النعم التي أنعمها اللّه عليه تزيد عن كل العمل الصالح الذي قدمه فى الدنيا.

على أنه يسبق الحساب والصراط الذي يضرب فوق النار ليمر عليه خلق اللّه كلهم.. يسبق هذا مشاهد تحدث أمام الناس جميعا.. يأتي اللّه خلالها بأئمة الكفر وينزعهم أمام الناس جميعا ليذلهم.. ويأتي اللّه بالمتكبرين فى الدنيا ويدوس عليهم الخلق.. وتحدث مشاهد كثيرة قبل أن يتم الحساب.. ويذهب أهل النار إلى النار وأهل الجنة إلى الجنة.

إذن.. الناس حين يحاسبون يوم القيامة تختلف صورة الحساب.. فإن المؤمن والعاصي والكافر.. كل منهم له حساب.. وشفاعة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم التى أعطاها اللّه له يوم القيامة.. والتي قال عنها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «شفاعتي

---

(١) روى أحمد فى المسند [٦/ ٢٠٦] عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها قالت: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: من حوسب هلك، قالت: قلت يا رسول اللّه أليس يقول اللّه عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الإنشقاق: ٨] قال: يا عائشة ذاك العرض من نوقش الحساب فقد هلك.
وروى البخاري [١٠٣]، ومسلم [٧٩/ ٢٨٧٦] عن ابن أبي ملكية أن عائشة زوج النبي صلى اللّه عليه وسلم: كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه، إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «من حوسب عذب». قالت عائشة: فقلت: أوليس يقول اللّه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾. قالت: فقال: «إنما ذلك العرض، ولكن: من نوقش الحساب يهلك».

لأهل الكبائر من أمتي».. لابد أن نعرف أن المشفوع له لابد أن تكون له خصلة خير عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.. خصلة الخير هذه هي التي توجد شفاعة الرسول للعاصي.. ذلك يقول صلى الله عليه وسلم: «لا تحقرن طاعة ما ولا تحقرن معصية ما فالله أخفى ثلاث: رضاه في طاعته وغضبه في معصيته وأسراره في خلقه»، أي: أن الإنسان لا يجب أن يحقر طاعة ما.. فقد تكون هذه الطاعة البسيطة التي لا يلقى إليها بالاً ولا يهتم بها.. هي السبب في دخوله الجنة.. لذلك إذا كانت هناك طاعة متاحة لك ولو أي طاعة بسيطة فسارع في فعلها؛ لأنها قد تكون هي التي ستأتي لك بالرضا.. وقد أعطانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا لذلك في قصة الرجل الذي سقى كلبا في يوم حر شديد.. فقد وجد الرجل بئرا ونزل وشرب منه.. وعندما صعد وجد كلبا يلهث من الحر والعطش.. فنزل الرجل إلى البئر وملأ حذاءه ماء ثم صعد وسقى الكلب حتى ارتوى فأدخله الله الجنة بهذا العمل.. إذن مطلوب منا ألا نحتقر أي طاعة ولا نحتقر أي معصية.. فقد تكون هي القشة التي قصمت ظهر البعير.. فلا يحتقر إنسان معصية مهما كانت بسيطة ويقول سيغفرها الله لي فقد تؤدي به هذه المعصية إلى النار.. كما بين لنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في قوله: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي سقتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[1].. أي إن المرأة دخلت النار بسبب تعذيبها قطة، ولذلك لا تستهينوا بأي معصية؛ فقد دخلت امرأة النار في تعذيب قطة.. ولا تحتقروا عبدا من عباد الله بسبب مظهره أو بساطة مركزه الدنيوي؛ لأنك لا تعرف ما السر الذي أخفاه الله فيه ولا المنزلة التي لهذا العبد عند ربه فقد يكون مستجاب الدعوة فيقبل الله دعوته.

نأتي بعد ذلك إلى فرق الحساب بين عباد الله.. الأنبياء والشهداء لا حساب لهم.. الأنبياء معصومون من الذنوب والشهداء غفرت لهم ذنوبهم ساعة استشهادهم.. ولذلك هؤلاء لا يحاسبون.. ويكون سؤال الأنبياء في الآخرة هو عن تبليغ أممهم بالمنهج.. وهل بلغوا رسالة الله أم لم يبلغوها.. وينتهي سؤالهم عند هذا الحد.. أما المؤمنون فإنهم يحاسبون حسابا يسيرا ولا يكون أكثر من عتاب صغير وعرض لرحمة الله عليهم.. يقال لهم لقد فعلتم كذا وكذا ولكن الله غفر لكم.. ولذلك تكون المناقشة معهم بتلطف وثواب وتكون عرضا لكرم الله وفضله.. أكثر مما تكون بشدة أو بعنف.. بل إن هؤلاء المؤمنين

---

(١) روى البخاري [٣٣١٨] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».
وفي رواية عند البخاري [٣٤٨٢] ومسلم [٢٢٤٢/ ١٥١]: «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

يضيف الله لهم من فضله بأن يلحق بهم ذرياتهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

هنا وفي ساعة الحساب يعطي المؤمنون من فضل الله الكثير.. فلو أن لهؤلاء المؤمنين ذرية صالحة مؤمنة.. فإن الله بفضله يلحق هذه الذرية بآبائهم وأمهاتهم بشرط أن تكون الذرية مؤمنة.. فالذرية لو لم تؤمن انفصلت عن العمل الصالح لآبائها كما حدث بالنسبة لابن نوح عليه السلام فقد كفر ابن نوح ورفض الإيمان فأغرقه الطوفان مع الكافرين، وعندما اتجه إلى السماء طالباً نجاة ابنه وأن يلحق به قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

وهكذا انفصل الابن عن النبي الأب لأنه عمل غير صالح.. الذرية المؤمنة يوم القيامة يلحقون بآبائهم الصالحين.. فهذه ليست كرامة للذرية ولكنها كرامة للآباء الذين ألحقوا بهم.. وما دام الابن يشترك في الإيمان مع الأب فإنه يلحق بالأب الصالح ولو اختلف عملهما؛ وذلك لا يؤثر في منزلة الأب الصالح ولا ينقص من عمله شيئاً.. ولذلك لا يقسم عمل الأب الصالح على جزأين جزء له وجزء لابنه.. بل يبقى عمل الأب الصالح تاماً وكاملا ومنزلته العلية كما هي ويلحق به الابن إكراما للأب وحسن إيمانه.

يبقى ذلك المسلم العاصي وهذا يحاسب على حسب معاصيه.. ويؤتى له بكتابه فيه نعم الله عليه ومعاصيه التي ارتكبها في الدنيا وطاعاته.. ومتى حوسب فإنه دخل النار.. لأن الحساب في هذه الحالة بغير فضل الله ورحمته يؤدي إلى جهنم والعياذ بالله.. أما الكافر فإنه يحاسب حسابا عسيرا.. يحرمه الله من رحمته ويحرمه من فضله ويحرمه من نوره.. ويظل هذا الكافر يكذب على الله ويتخبط في إجابته.. وهو في الحقيقية يكذب على نفسه لأن الله لا يخدعه أحد فهو عليم بكل شيء.. ويحس الكافر أنه يكره نفسه ويتمنى زوالها.. ويتمنى لو كان تراباً فيأتيه ما يزيد عذابه.. فيقال له: إن كنت تمقت نفسك وتكرهها كراهية كبيرة فإن مقت الله لك أكبر.. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠].

ويظل الكافر في ظلام الكفر يتخبط في كل شيء.. في كلامه وفي حركته حتى يلقى به في النار، على أن أول ما يحاسب به العبد هو إيمانه بالله.. فإن كان قد آمن يبدأ الحساب على تنفيذ متطلبات الإيمان وأول متطلبات الإيمان هي الصلاة؛ ذلك هو المطلوب الدائم من العبد، المطلوب الذي لا يسقط أبدا، فالصلاة قائمة دائمة لا تسقط.. فالحج يسقط بعدم الاستطاعة صحيا أو ماديا، والصوم يسقط بالمرض والسفر، والزكاة تسقط بعدم وجود المال.. وشهادة لا إله إلا الله محمد رسول تقال مرة واحدة.. ولكن الصلاة لا تسقط عن الإنسان مريضا كان أو سليما، غنيا كان أو فقيرا، صغيرا كان أم

كبيرا، مسافرا كان أم باقيا في مكانه.. فهي المطلوب الدائم للإيمان.. ولذلك إذا صلحت الصلاة صلح عمل العبد.

على أنه يوم القيامة يكون هناك حساب على حقوق الله.. وحساب على حقوق العباد.. الحساب على حقوق الله هو على المعاصي وعلى مخالفة منهج الله.. والحساب على حقوق العباد هو على ظلم الناس فى الدنيا أو الاعتداء على حقوقهم.. وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتدرون من المفلس؟». قال الصحابة: يا رسول الله المفلس من لا دينار عنده ولا درهم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل المفلس من أمتي هو من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ولكنه شتم هذا وقذف في حق هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه وطرح فى النار»[1].. أى إن المفلس هو الذي يذهب طيباته بالاعتداء على الناس.. والله سبحانه وتعالى يأتي لمن يشاء ويؤدي عنه حقوقه للآخرين حتى يدخل الجنة.

على أن الله سبحانه وتعالى حين يروي لنا مشاهد يوم القيامة فى القرآن الكريم.. فإنه يريد أن يعطينا صورة لبعض ما سيحدث في هذا اليوم العظيم.. علها تكون عبرة لنا وعظة وخصوصاً أن كل هذه المشاهد ستتم أمام كل من فى الحشر في ذلك اليوم العظيم وستكون فضيحة علنية.

وقد رأينا فى الصفحات السابقة من هذا الكتاب كيف أن أولئك الذين اجتمعوا على الإثم فى الدنيا سيصبحون بعضهم لبعض عدوا فى الآخرة.. وكيف سيأتي الله سبحانه وتعالى بالكفار والمنافقين ويحاسبهم.. وما هو الحوار الذي سيدور.

ويأتي الله سبحانه وتعالى ينتزع أئمة الكفر من بين أولئك الموجودين: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩﴾ [مريم].

وهكذا نرى مشهدا آخر من مشاهد يوم القيامة.. الكفار وهم حول نار جهنم ساجدون من الذل ومن الهوان.. ومن وسط هؤلاء الكفار والعاصين يأتي الله سبحانه وتعالى إلى أئمة الكفر، أولئك الذين كانوا يحاربون دين الله فى الأرض.. ويحاولون أن يضلوا المؤمنين.. تجدهم في كل مكان يسخرون من الذين آمنوا، ويسفهون منهج الله.. وهم في ذلك أشداء، أي يستخدمون كل مالديهم من قوة.. وكل ما يملكون من وسائل.. فالإنسان حين يكون شديدا يجمع قواه لمواجهة الحدث الذي يشغله.. وهؤلاء فى الدنيا كانوا أشداء على دين الله.. يستخدمون كل ما في إمكانهم من وسائل لمحاربة

(١) رواه مسلم [٢٥٨١/٥٩] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه.

هذا الدين.. والحقيقة أن الكفار هم أغبى خلق الله من ناحية المنهج.. فالله سبحانه وتعالى يستخدمهم في إثبات منهجه.. بينما هم يحسبون أنهم يفسدون هذا المنهج.

اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝ ﴾ [المطففين].

هذه صورة للكفار يعطيها الله سبحانه وتعالى لنا، إنهم في الدنيا يسخرون من المؤمنين، ويتغامزون عليهم.. إلى آخر ما نراه في هذه الأيام مما يحدث بالنسبة للمؤمنين، وهم يحسبون أنهم يحاربون منهج الله.

ولكن الحقيقة غير ذلك تماما.. فهؤلاء الكفار إنما يثبتون منهج الإيمان، ويكونون هم أنفسهم دليلا على صدق القرآن.. وأنه منزل من الله سبحانه وتعالى.. لأن الله أخبرنا في كتابه العزيز بأن هؤلاء سيسخرون ويتغامزون على المؤمنين في الدنيا.. ولو أن لديهم فطنة لما اتخذوا هذا السلوك.. وحينئذ كنا سنقول: إن القرآن قد قال لنا: إن المجرمين والكفار سيسخرون من الذين آمنوا في الدنيا، ولم يسخر منا أحد، ولم يتغامز علينا أحد.. ولكن كونهم سخروا وتغامزوا قد أعطونا الدليل على صدق منهج الله.. لأنهم فعلوا ما أنبأنا الله أنهم سيفعلونه.. وبذلك كانوا هم أنفسهم دليلاً على صدق المنهج.. لأنهم جاءوا وفعلوا ما أخبرنا الله أنهم سيفعلونه.. ولا يجب أن يضيق صدر المؤمن بهذه الأفعال.. بل كلما حدثت قال المؤمن سبحان الله.. لقد أخبرنا الله أنهم سيفعلون وفعلوا.. وصدق الله العظيم.. وأصبح هؤلاء المجرمون مثبتين للإيمان وهم يحسبون أنهم سيهدمونه.. تماماً كقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١].

فإذا جاء هؤلاء المضلون ليحدثونا بنظريات تتعارض مع كلام الله عن خلق السماوات وخلق الإنسان.. نقول لو لم يأت هؤلاء لقلنا أخبرنا الله عن المضلين الذين سيجادلون في الخلق فأين هم.. ولكن كونهم أتوا.. وأضلوا بما قالوه عن أن الإنسان أصله قرد، وأن السماوات والأرض أصلها كذا وكذا.. محاولين بذلك التشكيك في منهج الله.. نقول لهم: لقد ثبتم المنهج في قلوبنا.. لأن الله قد أخبرنا بما ستفعلونه، وجئتم أنتم تصديقا لمنهج الله وفعلتموه.. فشكرا لكم أنكم كنتم دليلاً على صدق المنهج.

يأتي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة، وينزع أئمة الكفر هؤلاء.. ومعنى ينزعهم.. أنه يأخذهم بالقوة والقهر بدون إرادتهم.. فكأنهم ينزعون نزعاً.. ويأتي بهؤلاء على رؤوس الأشهاد في المحشر. ليرى الناس، كل الناس، هؤلاء الذين كانوا أعزاء في الدنيا يبارزون الله بالمعاصي.. وهم في قمة الذل والهوان يوم القيامة.. وكأن الله يأخذهم من قمة العز والنعيم الذي كانوا فيه في الدنيا، إلى قمة الذل والهوان في الآخرة وأمام خلق الله جميعا.

الحساب أشكاله متعددة ومشاهده كثيرة، ولكن حساب المؤمن ستر.. أي: يكون

مستورا بينه وبين ربه.. وحساب الكافر فضيحة، أي: يكون على رؤوس الأشهاد جميعا.. ويرى الناس كل الهوان والذل الذي يصيب الكفار.. وكيف ينزعون من أماكنهم. وكيف يهانون ويجرون على وجوههم.. بعض الناس يتساءل: بأي لغة سيكون الحساب.. مع أن لغات الناس مختلفة فى العصر الواحد فكيف بها من عهد آدم حتى يوم القيامة.. نقول: إن الله سبحانه وتعالى سيخاطبنا بلغة نحن جميعا من عهد آدم إلى يوم القيامة نفهمها.. والله قادر على ذلك كما هو قادر على أن يجعلنا نفهم لغة أيدينا ولغة الجماد ولغة الملائكة.. كل خلق الله في ذلك اليوم سيتحدثون لغة واحدة.. فالله سبحانه وتعالى هو الذي علم الإنسان اللغة فقال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

ومن العجيب أنه لا يمكن لأي إنسان أن يتعلم إلا إذا بدأ تعليمه بالأسماء.. ولذلك في كل أنحاء العالم عندما يبدأون تعليم الطفل الصغير يعلمونه الأسماء.. فيقولون هذا كوب وهذا بحر وهذا جبل وهذه مائدة إلى آخر ذلك.. وبدون هذا التعليم الذي أعطاه الله لآدم لا يمكن أن يتعلم طفل شيئاً.. وأول لغة فى العالم هي من الله لآدم.. لأن اللغة تسمع ولا تورث.. ولذلك إذا أتيت بطفل إنجليزي وربيته في بيئة عربية فإنه يتكلم العربية.. وإذا أخذت طفلا عربيا ووضعته في بيئة إنجليزية فهم يتكلم الإنجليزية، إذن.. فلابد أن آدم سمع من الله قبل أن يتكلم.. أى إن الله سبحانه وتعالى أعطاه القدرة على التعبير.. ولذلك فإنه يوم القيامة تختفى اللغات كلها ولاتبقى إلا لغة واحدة يعلمها الله لعباده فيتحدثون جميعاً بها.. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليلقين الله أحدكم يوم القيامة وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له»[1]، أي: أن الله يعطي عباده قدرة الفهم.

ويتم رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فيقول: «فليقولن الله له ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول: بلى. فيقول الله: ألم أعطك مالا وولدا؟ فيقول: بلى: فيقول: ألم أكرمك وأسيدك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل فيقول: بلى. فيقول الله: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم. فيستغيث بربه، فيقول له الله: اليوم أنساك كما نسيتني. ثم يقول للكافر: الآن نبعث شاهدا عليك فينظر يمينا فلا يرى أحدا، ويسارا فلا يرى أحدا. فيتفكر في نفسه: من ذا الذي سيشهد عليه. فيختم على فمه ويقال ليديه ورجليه ولحمه وعظمه: انطقي فتنطق بعمله».

❁ ❁ ❁

(١) روى مسلم [٦٧/١٠١٦] عن عدي بن حاتم؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه. فاتقوا النار ولوبشق تمرة». زاد ابن حجر: قال الأعمش: وحدثني عمرو بن مرة عن خيثمة، مثله. وزاد فيه. ولو بكلمة طيبة.

الصراط.. وأناس يقادون إلى الجنة بالسلاسل

على إننا قبل أن نتحدث عن الصراط الذي يضرب على جهنم ليمر عليه كل الخلق قبل أن يدخلوا الجنة أو يلقوا في النار.. لابد أن نتناول بعض المشاهد التي يقف عندها الناس.. فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «عجبت لأناس يقادون إلى الجنة بالسلاسل»[1].

فكيف يقاد الإنسان إلى الجنة رغماً عنه؟.. نقول: إن هذا الحديث يشمل عدة طوائف قيدت إلى طريق الإيمان وهي كارهة. ثم ذاقت حلاوة الإيمان في الطريق إلى آخره.. وأول من ينطبق عليه هذا هم أسرى الحرب من الكفار أو من غير المسلمين.. تم أسرهم أثناء القتال بالسلاسل إلى معسكرات الأسرى.. اقتيدوا وهم كارهون.. وفي خلال إقامتهم بهذه المعسكرات كان لهم الفرصة ليتأملوا في قضية الإيمان بعيدا عن أي تأثير آخر.. فجلسوا يفكرون ويناقشون ويستمعون فاقتنعوا بهذا الدين وآمنوا.. وجذبهم الإيمان فدرسوا الدين فازدادوا إيمانا وصلح عملهم فأصبحوا من أهل الجنة.. أولئك كانت بداية اتجاههم إلى الإيمان وبداية طريقهم إلى الجنة.. إنهم اقتيدوا بالسلاسل.. فكأنهم لولا هذه السلاسل التي وضعت في أيديهم وأرجلهم ما كانوا قد اتجهوا إلى الإيمان ولا دخلوا

---

(١) روى أبي داود [٢٦٧٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «عجب ربُّنا عز وجل من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل».
قوله: «عجب ربنا»: قال المناوي: أي رَضي واستحسن. وقال في النهاية: أي عظم عنده وكبر لديه.
وقال صاحب عون المعبود: أعلم أنه إنما يتعجب الآدمي من الشيء إذا عظم موقعه عنده وخفي عليه سببه، فأخبرهم الله بما يعرفون ليعلموا موقع هذه الأشياء عنده.
وقيل: معنى «عجب ربك» أي: رضي وأثاب فسماه عجبا مجازا وليس بعجب في الحقيقة، والأول أوجه انتهى.
وقوله: «من قوم يقادون»: بصيغة المجهول أي يجرون «في السلاسل»: حال من الضمير في يقادون قال القاري: والمعنى أنهم يؤخذون أسارى قهرا وكرها في السلاسل والقيود فيدخلون في دار الإسلام ثم يرزقهم الله الإيمان فيدخلون به الجنة، فأحل الدخول في الإسلام محل دخول الجنة لإفضائه إليه، انتهى.
وقال الكرماني وتبعه البرماوي: لعلهم المسلمون الذين هم أسارى في أيدي الكفار فيموتون أو يقتلون على هذه الحالة، فيحشرون عليها ويدخلون الجنة كذلك. قال المنذري: وأخرجه البخاري.

obeikandl.com

الجنة . . وهناك فئة ثانية ينطبق عليها الحديث الشريف وهم كل من يذهب مضطراً إلى مجالس العلم ومجالس الذكر . . فلنفرض أن هناك رجلا أعمى وله ابن والرجل يريد أن يذهب إلى المسجد وأن يصلي وأن يستمع إلى الأحاديث الدينية إلى آخر ذلك . . ولذلك فإنه يأخذ ابنه معه ليدله على الطريق ذهابا وإيابا . . ويضطر الابن إلى أن يذهب مع أبيه وهو غير راغب . . فكأنه يقاد رغما عنه . . ثم تمضي فترة فإذا بهذه المجالس الدينية تجذب الابن تجاه الدين ويحس أنه يريد أن يعرف أكثر فيقرأ ويتبع المنهج ويزداد إيمانا .

إذن . . هو في البداية اقتيد إلى الجنة رغماً عنه وكأنه يقاد بالسلاسل . . ثم بعد ذلك مضى في الطريق وأحب الطاعة وأخلص لله . . وعلى أية حال فإن أي إنسان بدأ الطريق إلى الله وهو غير راغب إنما مضطرا . . ثم هدى الله قلبه إلى الإيمان فإنه يكون من الذين اقتيدوا إلى الجنة بالسلاسل . . فإذا أضفنا إلى هؤلاء الذين لا ييسر الله لهم معصية أبدا . . نكون قد فهمنا معنى الحديث الشريف .

على أننا نتساءل : هل يدخل الجنة من لا عمل له؟ نقول نعم . . هناك من سيدخل الجنة ولا عمل له . . فلنفرض أن رجلا آمن وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . شهادة خالصة مخلصة ليس فيها رياء ولا نفاق ولكن فيها صدق الإيمان . . وبعد أن شهد الرجل بهذه الشهادة انتهى أجله . . مات أو صدمته سيارة أو نزل فوق رأسه حجر . . فإنه يدخل الجنة . . لأن شهادة أن لا إله إلا الله تجُبُّ ما قبلها . . ولقد كان مخيرق أحد أحبار اليهود وهداه الله فنطق بالشهادة وأعلن إيمانه وقبل أن يدخل المعركة قال : مالي أعطوه لمحمد . . ثم دخل المعركة فاستشهد . . لم يصل لله ركعة واحدة . . ولكنه قبل أن يموت آمن ونطق بالشهادتين . . وعندما بلغ امره لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مخيرق نعم يهود » . ذلك أنه رغم أنه لم يصل ركعة واحدة فقد دخل بإيمانه الجنة [1] .

على أن أهل الجنة بالنسبة لأهل النار سيكونون بنسبة واحدة إلى الألف . . فقد جاء في الحديث القدسي : «يقول الله عز وجل يوم القيامة : يا آدم . فيقول : لبيك ربنا وسعديك . فينادي صوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار . فيقول آدم :

---

(١) قال ابن اسحاق : وكان ممن قتل يوم أحد مخيرق وكان أحد بني ثعلبة بن الفيطون . قال لما كان يوم أحد قال : يا معشر يهود والله قد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا إن اليوم يوم السبت . قال لا سبت لكم فأخذ سيفه وعدته وقال إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل معه حتى قتل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا « مخيرق خير يهود » .

وكان مخيرق حبرا عالما غنيا كثير الأموال من النخل وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته وما يجد في علمه . وخالف قومه اليهود واشترك في موقعة أحد التي لم يشترك فيها أحد من اليهود غيره . فلما قتل قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله وتصدق بها .

قلت : وكانت سبعة حوائط في بني النضير . كما جاء في شرح مسلم للنووي .

وما بعث النار؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون» وحين يسمع من في الحشر هذا الكلام تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

ويقول رسول الله صلى لله عليه وسلم: «أهل الجنة بالنسبة لأهل النار كالشعرة البيضاء في جسد ثور أسود؛ أو شعرة سوداء في جسد ثور أبيض»[1].

---

(١) روي البخاري [٤٧٤١] ومسلم [٣٧٩/٢٢٢] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]. قالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك الواحد؟ قال: «أبشروا، فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألفا. ثم قال: والذي نفسي بيده، إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة». فكبرنا، فقال: «أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة». فكبرنا، فقال: «أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة». فكبرنا، فقال: «ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود».

قال الحافظ في الفتح: قوله: «أخرج بعث النار» البعث بمعنى المبعوث وأصلها في السرايا التي يبعثها الأمير إلى جهة من الجهات للحرب وغيرها، و خص بذلك آدم لكونه والد الجميع ولكونه كان قد عرف أهل السعادة من أهل الشقاء فقد رآه النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وعن يمينه أسودة وعن شماله أسودة الحديث كما تقدم في حديث الإسراء وقد أخرج ابن أبي الدنيا من مرسل الحسن قال «يقول الله لآدم: يا آدم أنت اليوم عدل بيني وبين ذريتك قم فانظر ما يرفع إليك من أعمالهم».

قوله: «قال وما بعث النار» الواو عاطفة على شيء محذوف تقديره سمعت وأطعت وما بعث النار أي وما مقدار مبعوث النار وفي حديث أبي هريرة «فيقول يا رب كم أخرج».

قوله: «من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين».. وأجاب الكرماني بأن مفهوم العدد لا اعتبار له فالتخصيص بعدد لا يدل على نفي الزائد والمقصود من العددين واحد وهو تقليل عدد المؤمنين وتكثير عدد الكافرين.

قلت: ومقتضى كلامه الأول تقديم حديث أبي هريرة على حديث أبي سعيد فإنه يشتمل على زيادة فإن حديث أبي سعيد يدل على أن نصيب أهل الجنة من كل ألف واحد وحديث أبي هريرة يدل على عشرة فالحكم للزائد ومقتضى كلامه الأخير أن لا ينظر إلى العدد أصلا بل القدر المشترك بينهما ما ذكره من تقليل العدد وقد فتح الله تعالى في ذلك بأجوبة أخر وهو حمل حديث أبي سعيد ومن وافقه على جميع ذرية آدم فيكون من كل ألف واحد حمل حديث أبي هريرة ومن وافقه على من عدا يأجوج ومأجوج فيكون من كل ألف عشرة ويقرب ذلك أن يأجوج ومأجوج ذكروا في حديث أبي سعيد بدون حديث أبي هريرة، ويحتمل أن يكون الأول: يتعلق بالخلق أجمعين، والثاني: بخصوص هذه الأمة ويقربه قوله في حديث أبي هريرة «إذا أخذ منا» لكن في حديث ابن عباس «وإنما أمتي جزء من ألف جزء» ويحتمل أن تقع القسمة مرتين مرة من جميع الأمم قبل هذه الأمة فيكون من كل ألف واحد ومرة من هذه الأمة فقط فيكون من كل ألف عشرة ويحتمل أن يكون المراد ببعث النار الكفار ومن يدخلها من العصاة فيكون من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون كافرا ومن كل مائة تسعة وتسعون عاصيا والعلم عند الله تعالى.

أما الباقي فهم لا يدخلون الجنة.. وهم الذين يقول عنهم الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾.

أي لم يصدقوا بها ولم يؤمنوا بها.. فلماذا قال الله: ﴿ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا ﴾.

نقول: إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا حكما جديدا.. فهؤلاء الناس لم يكذبوا فقط.. ولم يكذبوا لأن آيات الله في كونه غير واضحة.. أو لم تصل إلى عقولهم.. ذلك لأن آيات الله فى الكون واضحة لكل ذي عقل.. فالشمس والقمر والجبال والأنهار والزرع والماء كل هذا ظاهر للناس جميعا لا يحتاج إلى فكر عميق ولا إلى من يبينه، بل هي آيات تنطق بالإعجاز لله.. ولكن هؤلاء المكذبين كذبوا استكبارا.. ذلك أن الكبر ملأ نفوسهم.. فرفضوا مثلاً الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه ليس من صناديد مكة وقالوا: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

أى إن القرآن وحده يحمل الحجة البالغة والبيان الكامل.. ولكن الكبر الذي ملأ نفوسهم لأن الله أعطاهم من نعمه فى الدنيا فأصبحوا يستنكفون أن يخضعوا إلا لرجل ذي جاه وسلطان.. فهم لا ينكرون القرآن ولكنهم لا يريدون أن يخضعوا للحق وللمساواة التي جاء بها هذا الدين.. ولذلك فهم يظنون أنه لو نزل هذا القرآن على رجل ذي سلطان ونفوذ.. فإنه سيكون منهم ويبقي لهم ميزاتهم وسيادتهم وعبودية الآخرين لهم.. ولم لا وهو منهم ويهمه أن يزدادوا سيادة ويزداد الآخرون عبودية.. نقول لهؤلاء: إن الله سبحانه وتعالى لا يفرق بين عباده بجاه الدنيا.. وأن الله يعلم أين يضع رسالته.. وهو يضعها فى المكان الصحيح السليم.. ويعطيها لصاحب الخلق العظيم، الذي سيحمل المنهج بأمانة ويعلمه للناس بأمانة.. ويكون واحدا من قومه فلا يتعالى عليهم.. يقول الله سبحانه وتعالى إن هؤلاء المكذبين لا تفتح لهم أبواب السماء. فهل هناك للسماء أبواب وكأنها تفتح وتغلق.. نقول: نعم إن للسماء أبواباً وعليها ملائكة وإن هذه الأبواب تفتح لدعاء الصالحين فيصعد إلى السماء السابعة، وتفتح لدعاء المظلومين فيصعد دعاؤهم إلى أعلى عليين وأبواب السماء تفتح عند الموت لأرواح الصالحين لتصعد إلى الملأ الأعلى وتكون رائحتها طيبة كرائحة المسك.. أما المكذبون فلا تفتح لهم أبواب السماء بل تخسف بأرواحهم الأرض.. فالعمل الصالح فقط هو الذي يرفع صاحبه.. وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠].

يريد الله سبحانه وتعالى أن ينبهنا إلى استحالة دخولهم الجنة؛ لأنه لو قال لا يدخلون الجنة فقط ربما كان هناك أمل في رحمة من الله تصيبهم فيدخلهم الجنة.. ولكن

الحق يريدنا أن نعرف أن هناك استحالة في أن يدخلوا الجنة كما أن هناك استحالة في أن نأتي بالجمل وندخله في ثقب المخيط، أي ثقب الإبرة.. ونحن نعرف أن الخيط الرفيع لا يدخل من ثقب الإبرة إلا بصعوبة.. ونحن نبلله بريقنا لنعطيه شيئاً من الصلابة حتى يمكن أن يدخل من ثقب الإبرة.. إذن.. فالخيط لابد أن نحتال حتى يدخل من هذا الثقب الضيق.. فما بالك إذا جئنا بالجمل أيكون ذلك ممكنا أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة.. أو يكون ذلك كناية من اللّه سبحانه وتعالى من أن عددا قليلا من البشر هو الذي سيدخل الجنة.. أما باقي الناس على كثرة عددهم فإنهم لا يدخلون.. وهكذا سلب اللّه سبحانه وتعالى من المكذبين والمستكبرين نعيماً دائما، وهو الخلود فى الجنة، ولكن هل سلب هذا النعيم منهم عقوبة كافية عن تكذيبهم واستكبارهم؟ نقول: لا. إنهم حرموا النعيم فى الجنة ولكنهم سيعذبون فى النار؛ ولذلك فقد حرموا النعيم بحرمانهم من الجنة، ثم بعد ذلك يأتيهم جزاء آخر في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

ويتم الحساب وسط مشاهد عديدة ترى أصحاب النار فيها وقد اسودت وجوههم.. وليس معنى سواد الوجوه هو اللون بقدر ما هي الحالة التي يكون عليها الإنسان.. فالإنسان حين يكون في كرب عظيم نقول عنه إن وجهه أسود.. أي مكفهر.. من هم عظيم.. كذلك الذين عرفوا أن مصيرهم النار.. يود الواحد منهم أن يتحول إلى حفنة تراب ولا يدخل النار.. فأقل العذاب فى النار هو أن يرتدي الإنسان نعلين من جهنم فيغلي رأسه.. فيقال له: هل تفتدي نفسك بكل ما فى الدنيا وبأهلك وولدك وكل ما تملك وكل ما يمكن أن تملك لتنجو من العذاب.. فيقول بسرعة: نعم.. فيقال له: لن يقبل منك.. أولئك الذين اسودت وجوههم هم أصحاب النار الذين قال اللّه عنهم ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٤].

قد يقول بعض الناس: إن هناك حديثاً بين اللّه وبين أهل النار.. سواء كان ذلك قبل أن يدخلوا النار أو وهم فيها.. فاللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ۝ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ۝ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝﴾ [المؤمنون].

هذا حوار بعد دخولهم النار.. وهناك حوار آخر في يوم المشهد العظيم ذكرنا منه قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

نقول: إن المقصود بكلام اللّه سبحانه وتعالى هو الأنس باللّه.. فاللّه سبحانه وتعالى حين يخاطب المؤمنين يأنسون بخطابه وينعمون بكلامه.. وتكون هذه نعمتهم الكبرى التي يدخلهم اللّه سبحانه وتعالى بها في رحمته.. ذلك أن هناك نوعين من

التنعيم.. أولئك الذين يدخلون الجنة.. وهؤلاء ينعمون فيها ولكن الجنة مخلوق من خلق الله.. ولذلك فهي باقية ما شاء الله لها البقاء.. ولكن للذين يدخلهم الله في رحمته.. فالرحمة هي صفة من صفات الله.. فكأنهم باقون فيها لا يخرجون منها أبدا.. ومعنى لا يكلمهم الله.. أي الكلام الذي يؤنسهم وينعمهم.. ولكن يكلمهم الكلام الذي يؤلمهم ويزيدهم عذابا.. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾

أي: لا يطهرهم.. فتبقى ذنوبهم والعياذ بالله غير مغفورة ويظلون فى النار.. وحتى حين يحاولون أن يلتمسوا إذا كانوا سيبقون فى النار إلى الأبد أم سيخرجون منها.. يلجأون إلى الله سبحانه وتعالى ولكنه لا يجيبهم ولا ينظر إليهم.. وهم في ظلمات ذنوبهم لا يرون الله مصداقا لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فيتجهون إلى كبير ملائكة النار يطلبون منه أن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يقضي عليهم.. أي يميتهم ويريحهم من العذاب.. فيقول لهم ملك النار: لقد صدر الحكم وأنتم لا تدرون.. إنكم خالدون فى العذاب.. ويعطينا الحق سبحانه هذه الصورة فى القرآن الكريم فيقول: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

أى إنهم من شدة العذاب يريدون أن يعرفوا حكم الله.. عله قد خفف عنهم العذاب يوما أو أياما.. فيقول لهم ملك النار لم يخفف العذاب وستبقون فى النار.

عندما ينتهي الحساب يضرب الصراط على جهنم.. والصراط هو الطريق.. ونحن ندعو الله سبحانه وتعالى ونحن في دنيا الاختيار والتكليف أن يهدينا الصراط المستقيم.. أي الطريق المستقيم الذي هو أقرب الطرق وأسلمها إلى الغاية التي نقصدها.. ولكي نعرف ميزة الصراط المستقيم لا يكون ذلك إلا فى الآخرة.. فيضرب الصراط فوق جهنم.. ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] عندما نزلت هذه الآية بكى الصحابة بكاءً شديدا.. فنزل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

ولكي نفهم هذه الآيات ونعرف معنى الصراط نقول إن هناك ثلاث مراحل بالنسبة للعذاب لابد أن نتنبه لها.

الله سبحانه وتعالى أخبرنا أن هناك الجنة والنار فى الآخرة، هذا علم أبلغه الله لنا ولكن؛ لأن هذا العلم أتى من الله سبحانه وتعالى فهو علم يقين.. لأنه إخبار من الله والله يقين وكل ما يخبرنا به يقين.. وكفى حيثية لتصديق الخبر أنه يأتينا من الله سبحانه وتعالى.. ولذلك لابد أن نلتفت إلى قول الله لرسوله الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير لأنه ولد في عام الفيل.. ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا بهذه الآية إلى أن إخبار الله لنا هو في يقين الرؤية؛ فلأن الله قال

فكأنما رأينا، فيصبح الأمر يقينا في نفوسنا كأننا رأيناه تماما، ولذلك قال الله لرسوله الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾

ولم يقل ألم تعلم.. لأن الإخبار جاء من الله سبحانه فلابد أن نستقبله بيقين إيماني.. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر].

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه قد استخدم: ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾.. و ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾

بالنسبة لجهنم.. علم اليقين مفروض أنه بالنسبة للمؤمن في الحياة الدنيا.. فمادام الله قد أعلمنا فعلمه علم اليقين، أي لابد أن يقع بالنسبة لنا.. نأتي بعد ذلك إلى عين اليقين.. وهذا هو الذي سيحدث عندما يضرب الصراط فوق جهنم.. سنمر جميعاً من فوق الصراط، ونرى جهنم رؤية عين اليقين.. أي سنشاهدها بأعيننا وهي تستعر ونحن نمر من فوقها.. هذا هو عين اليقين.. وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه وتعالى: ﴿نُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾ [الواقعة].

متى تصبح جهنم حق يقين؟.. للذين سيدخلونها والعياذ بالله تصبح حقيقة واقعة يحسون بها ويعرفون أنها حق.

نأتي بعد ذلك إلى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾..

ورد أي وصل إلى المكان وليس معنى ذلك أنه يذوق ما فيه.. فيقال ورد الماء أي وصل إلى مكان الماء.. ولا يعني ذلك أنه شرب منه أو خاض فيه.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣].

أي وصل إلى مكان الماء.. كذلك قول الله سبحانه وتعالى عن جهنم: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾

أي: أنتم جميعاً ستصلون إليها ولكن لن تعذبوا جميعاً فيها.. بل سينجي الله المؤمنين ويعذب العصاة والكافرين.. وهذا سيتم على الصراط الذي يضرب فوق جهنم.. هذا الصراط يمر عليه كل الخلق ليروا جهنم رؤية اليقين.. فكل منا سيمر عليها.. لماذا؟.. ليعرف الطائع نعمة الله في أنه نجاه من العذاب.. فالنجاة من عذاب جهنم نعمة كبرى.. وليرى الكافر ما ينتظره من عذاب.

ثم يبدأ مرور كل خلق الله على الصراط وقد انتهت أرض الحشر واختفت شمس الحشر وأصبحت الدنيا ظلاما.. كل يرى على قدر النور الذي أعطاه الله له.. فبعضنا أعطاه الله نورا قويا فهو يرى.. وبعضنا أعطاه الله نورا بسيطا فهو يرى على قدر خطوة قدميه.. وبعضنا أعطاه الله نورا على قدر أصبعه فهو يزحف ببطء شديد ويرى أهوالا ويظن في كل مرة أنه سيسقط في النار.. فإذا مر بالصراط ونجا حمد الله كثيرا على النعمة الكبرى.. أما الكافرون والعياذ بالله فهم في

ظلام دامس يتخبطون حتى تخطفهم كلاليب من حديد فتهوى بهم إلى جهنم.

اللّه سبحانه وتعالى يعطينا الصورة فى القرآن الكريم.. أولاً صورة أصحاب الجنة وهم يمرون بالصراط في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الحديد: ١٢].

ثم يعطينا القرآن بعد ذلك صورة رضا المؤمنين بهذا النور في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨].

وهكذا دعاء المؤمنين بأن يتم اللّه لهم نوره.. وعلى قدر نور كل واحد منهم يكون مروره على الصراط بطيئاً مليئاً بالأهوال.. حتى يحسب الذي يمر أنه سيسقط في جهنم.. فالمرور بالصراط من أهوال القيامة وخصوصاً وأنت ترى جهنم مشتعلة وأنت تمر فوقها.. ومن هول ما ترى تدعو اللّه ألا يقضي عليك بثانية واحدة فيها.. فما بالك بمن سيمكث فيها أربعين خريفا وهذا أقل العذاب.

وحين يبدأ عبور الصراط يسرع المنافقون والمنافقات ليعبروا على نور المؤمنين فيفصل اللّه بينهم بحاجز.. هو من ناحية المؤمنين يملؤه النور والرحمة.. ومن ناحية الكفار يملؤه الظلام والعذاب.. ويعطينا اللّه الصورة فى القرآن الكريم في سورة «الحديد» فيقول: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣].

وهكذا يحرم اللّه المنافقين والمنافقات من أن يسيروا على هدى نور المؤمنين والمؤمنات.. أو يتمتعوا برحمة اللّه وأمنه وهم يعبرون الصراط.. وحينئذ يتساءل المنافقون والمنافقات: ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾.

أي: ألم نكن معا فى الحياة الدنيا حينما كان المنافقون يتظاهرون بالإيمان وكانوا يجلسون مع المؤمنين ويعايشونهم.. فيقال لهم إن هذا كان فى الدنيا حيث يمكن التظاهر بما لا يؤمن به الإنسان حقيقة، وحيث كان يمكن أن يدعي أي إنسان الإيمان وهو لا يؤمن.. أما الآن فى الآخرة فلا يوجد هناك ظاهر أو باطن فذلك اليوم الذي قال عنه الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق: ٩].

ويظهر الناس على حقيقتهم ولا يسيطر أحد على جسده أو أعضائه أو قلبه ويكشف اللّه سبحانه وتعالى كل شيء؛ لذلك عندما يقول المنافقون: ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤] وهكذا حسمت المسألة وفرق بين المؤمنين والمنافقين.

وهكذا نرى أن نعمة الإيمان هي التي تنجي المؤمنين من النار بعد أن رأوها عين

اليقين.. فكل من سيرى النار سيعرف نعمة الله.. فإذا زحزح عن النار كان ذلك فضلا عظيما من الله.. فكأن هناك فضلين لله في الآخرة.. الفضل الأول أن ينجيك من النار.. والفضل الثاني أن يدخلك الجنة.. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٥٨].

ولكن هناك من سيزحزحون عن النار ولا يدخلون الجنة إلا بعد فترة من الزمن.. هؤلاء هم أهل الأعراف.. الذين قال الحق سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ﴾ [الأعراف: ٤٦].

أي: أن هناك فريقاً ثالثاً ليسوا من أهل الجنة ولا من أصحاب النار.. وهؤلاء موجودون على الأعراف.. في مكان عال بين الجنة والنار.. والعُرف مأخوذ من عُرف الديك أي أعلى شيء فيه.. وعُرف الفرس أي أعلى مكان فيه.. هؤلاء هم أهل الأعراف.. هؤلاء الجالسون على الأعراف يعرفون أصحاب الجنة وأصحاب النار بأشكالهم.. وهناك علامات مميزة لأهل الجنة.. وعلامات مميزة لأهل النار.. ما هي هذه العلامات؟

عندما يدخل الإنسان منهج الله يكون أهلا لاستقبال سمات الإيمان.. وهي الوجه السمح والنفس الرحيمة وحب الخير.. فإذا دخل الجنة امتلأ وجهه نورا وقلبه رضا.. وبمجرد أن تنظر إليه يسرك وجهه وتراه متلألئا.. أما أهل النار والعياذ بالله فلهم بشاعة الخلقة وسوء الخُلق.. وهم من هول ما يعانون ترى على وجوههم تعبيرات الألم الشديد والضيق.. والله سبحانه وتعالى يعطي صفات الجلال والجمال لأهل الجنة.. ويعطي صفات القبح والبشاعة لأهل النار.

إذن.. فأهل الجنة لهم سمات أو علامات تميزهم.. وأهل النار لهم علامات تميزهم.. كيف يتم ذلك؟ إنه بقدرة الله سبحانه وتعالى.. وإذا كنا نحن البشر وبصناعة البشر نستطيع أن نحول أجمل الوجوه بالألوان والأصباغ فتصبح أبشع الوجوه.. ونستطيع بالطريقة نفسها أن نداوي عيوب الوجه القبيح ليصبح مقبولاً.. وهذا ما يسمونه الماكياج.. ونحن نفعل ذلك بطريقة صناعية يمكن أن تزال بالماء أو بسوائل أخرى.. ولكن الحق سبحانه وتعالى سيتم هذه العملية خَلقاً منه بحيث لا يزيلها شيء.. فبمجرد أن تنظر إلى الإنسان تعرف إذا كان من أصحاب النار أو من أصحاب الجنة.. وذلك بمجرد النظر دونما أن تحتاج أن ترى هذا يُنَعّم وهذا يُعَذّب.. بمجرد أن يرى أصحاب الأعراف أهل الجنة يقولون سلام عليكم.. أي إن الأدنى يحيي الأعلى.. ولا يعتقد أحد أنه يوجد في قلوب أهل الأعراف حقد على أصحاب الجنة أو عطف على أصحاب النار.. بل على العكس هم فرحون بأصحاب الجنة ويستعيذون من أصحاب النار.

أصحاب الأعراف

ولكن من هم أصحاب الأعراف.. إنهم الذين جاءوا إلى الآخرة وقد تساوت حسناتهم مع سيئاتهم.. تساوت كفتا الميزان والله سبحانه يقول: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝﴾ [القارعة].

نلاحظ أن هذه الآيات لم تذكر لنا إلا فريقين.. الذين ثقلت موازينهم والذين خفت موازينهم ولكنها لم تذكر ماذا سيحدث عندما تتساوى كفتا الميزان.. هؤلاء هم أهل الأعراف الذين لم يثقل موازينهم بالحسنات فيدخلوا الجنة.. ولم تخف موازينهم فيدخلوا النار.. عندما يرى أصحاب الأعراف أهل الجنة يلقون عليهم السلام.. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

أى إن الذين على الأعراف يطمعون في دخول الجنة وسيدخلونها بعد فترة برحمة الله.

ولكن أهل الأعراف هم بين الجنة والنار.. ولذلك فهم يرون الفريقين.. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٧].. معنى صُرف أن المسألة ليست اختيارية.. وإنهم كانوا يتمنون أن تظل أبصارهم مع أصحاب الجنة ونعيمها.. ولكن الله سبحانه وتعالى صرف أبصارهم إلى أصحاب النار ليلفتهم إلى النعيم الذي هم فيه ولو أنهم على الأعراف لم يدخلوا الجنة.. لأن الذي ينجو من النار يكون قد فاز فوزا عظيماً.. فإذا رأى أهل الأعراف أصحاب النار استغاثوا بالله لئلا يجعلهم معهم وقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

ماذا يحدث بعد ذلك؟ يعرف أصحاب الأعراف رجالا فى النار عاشوا فى الدنيا في عزة وكفروا بالله سبحانه وتعالى واستهانوا بعذابه فينادونهم.. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨].

بمجرد أن صرف الله أبصار أهل الأعراف إلى النار عرفوا بالنظرة رجالا عاشوا وكانت لهم السيادة فى الأرض ولكنهم كفروا بالله فينادونهم.. والله يجعلهم يعرفونهم بمجرد رؤيتهم.. ينادونهم بأسمائهم.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي ما أغنت عنكم قوتكم التي استكبرتم بها فى الأرض.. أو جماعتكم التي كانت تحميكم وتنصركم.. أو شياطينكم أو ما كنتم تعبدون من دون الله.. والسؤال هنا: كيف يتم الحوار؟.. والجواب أنه يوم القيامة سيتحدث كل البشر بلغة واحدة يعلمها لهم الله، ثم يقول لهم أهل الأعراف: ها أنتم أولاء تعذبون فى النار ولا أحد يستطيع أن ينجيكم.. ثم يمضي أهل الأعراف في توبيخ أصحاب النار فيقولون: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وهكذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: انظروا إلى المؤمنين الذين كنتم تسخرون منهم فى الدنيا وتهزأون بهم وتقولون إنهم على ضلال وأنكم على الحق.. انظروا إليهم كيف ينعمون الآن مع أنكم كنتم تهزأون منهم فى الدنيا.. وتقولون أساطير الأولين وتحاولون أن تنالوا منهم وتؤكدون أنهم على ضلال.. هؤلاء الذين كانوا مستضعفين فى الدنيا ينعمون الآن فى الجنة.. وينعمون برضا الله ورحمته.

حينئذ.. وحين ينتهي هذا الحوار.. يعتبره الله سبحانه وتعالى حسنة لأهل الأعراف.. فيضعه في ميزانهم.. فترجح كفة الحسنات.. ويقول لهم الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

فيدخل أهل الأعراف الجنة ويصبحون من أهلها.

على أن حوارا سيدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار.. فأهل الجنة يرون أهل النار وهم يعذبون.. وأهل النار يرون أهل الجنة وهم ينعمون.. فما هو هذا الحوار؟

obeikandl.com

أهل النـــار

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة وقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاء جبريل الجنة ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها. ثم رجع إلى الله وقال: فو عزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فأمر الله بها فحفت بالمكاره.. ثم قال لجبريل: ارجع إليها فانظر ما أعددت حولها. فرجع جبريل إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره فعاد إلى الله وقال: وعزتك لقد حفت بالمكاره حتى أنني أحس أنه لن يدخلها أحد. فقال الله لجبريل: اذهب إلى النار فانظر إليها. فذهب جبريل فإذا بالنار يركب بعضها بعضا. ورجع جبريل إلى الله وقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها. فأمر الله فحفت النار بالشهوات ثم قال لجبريل: ارجع إليها، فرجع جبريل ثم عاد وقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها»[1].

هذه هي قصة الجنة والنار اللتين سنتحدث عنهما في هذا الفصل.. بعد أن بينا كيف سيمر خلق الله كلهم على الصراط.. فيسقط فى النار أهل النار.. فالمؤمنون على الصراط لهم نورهم الذي يضيء لهم الطريق ويريهم حتى يمروا سالمين فتكون لهم النجاة من النار.. والكافر لا يرى إلا ظلاما ويتخبط كالأعمى حتى يسقط فى النار.. وكما أن أهل الجنة يذهبون إلى الجنة في جماعات؛ كذلك أهل النار يسقطون فى النار في جماعات، ويعطينا القرآن الكريم هذه الصورة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ [الملك: ٨].

وإذا كنا قد اخترنا أن نبدأ الحديث عن أهل النار فإننا نريد بذلك أن يكون عبرة وعظة.. ونحن نعيش في عصر قد ملأته الفتن وانتشر فيه الفساد.. وانصرف الناس عن الآخرة إلى الدنيا.. فحسبوا أنها الهدف وهي الحياة.. واستباحوا ما حرم الله ومضوا يستهينون بقيم الدين ومنهج السماء.. لذلك فإننا نبدأ الحديث عن النار وأحوال أهلها.. عسى أن يكون في ذلك عبرة فيعود الناس إلى الله ويتوبوا إليه إذا عرفوا ما سيلقاه العاصي والكافر فى الآخرة من عذاب.. وعذاب النار ليس فقط شوي الوجوه والجلود.. ولكنه أيضا إذلال للكافر ففيه العذاب المادي وفيه العذاب النفسي.. فكل من كان عظيماً فى

---

(١) رواه أبو داود [٤٧٤٤]، والترمذى [٢٥٦٠]، والنسائى فى المجتبى [٣٧٣٦] وقال الألبانى: حسن صحيح.

الدنيا وتنحنى له الجباه ويأمر فيطاع، يذل بأن يسحب على وجهه فى النار وأن تهان كرامته ويذوق من ألوان العذاب النفسي الكثير ويبحث عن الله ليستغفره أو يتوب إليه ولكن الله سبحانه وتعالى قد قضى على أهل النار أنهم لا ينعمون برؤيته أبدا.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥].

وهذا عذاب ما بعده عذاب.. لأن الأنس بالله يوم القيامة نعيم ما بعده نعيم.. والتوبة يوم القيامة مرفوضة.. ذلك أن التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها.. هذا ما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وكيف تطلع الشمس من مغربها؟[1].. إن الشمس تجري لمستقر لها فإذا وصلت إلى هذا المستقر فإن لكل فعل رد فعل، فتعود الشمس مرة أخرى وحينئذ تطلع؛ لأنها برد الفعل تجري في عكس الاتجاه، وعلى أية حال فإن طلوع الشمس من مغربها يعني حركة عكس الحركة التي تتم الآن، وموعد هذا في علم الله فلا أحد يستطيع أن يعرف أو يتنبأ متى سيحدث ذلك.. والمهم من دون محاولة الدخول في تفاصيل؛ أنه عندما يحدث ذلك ومن بداية هذه اللحظة لا تقبل توبة إنس ولا جان.

ما معنى العذاب فى النار؟ معناه حرمان من كل نعم الله التي أعطاها لنا فى الدنيا.. فلله نعم الدنيا يتمتع بها المؤمن والكافر.. ولكن فى الآخرة كل هذه النعم محرمة على الكافر.. ففى الدنيا يتمتع الناس بالحياة.. فالحياة فى الدنيا متعة يتمتع فيها المؤمن والكافر.. ولكن فى الآخرة لا توجد حياة للكافر ويتمنى الكافر الموت ينقله إلى خير مما هو فيه.. ولكن في جهنم يتمنى أهلها الموت وأن يجيبهم الله إلى أمانيهم.. وفي ذلك يقول الحق: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [طه: ٧٤].

ومن نعم الحياة فى الدنيا الثياب.. والذين أعطاهم الله من نعيم الدنيا يرتدون فاخر الثياب ويباهون ويتفاخرون وهي تعطيهم المظهر الحسن وتعطيم المقام الدنيوي، وكلما كانت الثياب فاخرة أحس الناس بأن ذلك الذي يرتديها رجل عظيم، فالثياب من زينة الحياة الدنيا ومن نعمها يأتي الله سبحانه وتعالى فى الآخرة فينزع هذه النعمة من الكفار ويلبسهم ثيابا من نار. وفي ذلك يقول الحق: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ [الحج: ١٩].

من نعم الدنيا التي يتمتع بها المؤمن والكافر نعمة الطعام والشراب.. الله سبحانه وتعالى جعل فى الطعام والشراب لذة بأن خلق أصنافاً كثيرة يختار منها الناس ما يحبون.. وفضل بعضها على بعض فى الطعم والرائحة متاعاً منه لخلقه.. كما أوجد الماء ليرتوي منه الناس.. ففي أيام الحر يشرب الناس الماء فيرويهم ويخفف عنهم شدة الحر، والذي يسير فى الصحراء في جو شديد الحرارة يعرف نعمة الله فى الماء الذي خلقه..

---

(١) رواه مسلم [٢٧٥٩/ ٣١] عن أبى موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه.

وخصوصا إذا أصابه الظمأ ثم وصل إلى بئر أو مصرف للماء وشرب حتى ارتوى.. يحس بالنعيم الحقيقي عندما يرتوي.. ولكن هذه النعم كلها محرمة على أهل النار، فإذا جاعوا وطلبوا الطعام أتاهم طعام مر المذاق.. إذا نزل في حلوقهم أصابهم ألم وغصة.. فإذا وصل إلى المعدة غلا فيها غلياناً فيصيبهم بألم شديد. أى إن اللذة نزعت من الطعام ووضع بدلاً منها العذاب.. فبعد أن كانوا يأكلون ويتمتعون أصبح الطعام عذابا.. وبعد أن كان الطعام فى الدنيا إذا أكلوه يعطي أجسادهم الطاقة ويسكن آلام الجوع فيها.. فإن طعام أهل النار لا يعطيهم طاقة ولا يسكن آلام الجوع.. فإذا طلبوا الماء جاءهم الماء يغلي ليقطع أمعاءهم.. والله يعطينا هذه الصورة وهو يتحدث عن شجرة الزقوم التي هي طعام أهل جهنم.. في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ﴾ [الصافات].

والله سبحانه وتعالى من رحمته بالنسبة للحياة الدنيا قد جعل الألم محدودا.. فإذا تألم إنسان من مرض مثلاً.. فإن هذا الألم يمكن أن يخفف بالدواء ويمكن أن يزول بالشفاء.. ويمكن أن ينتهي بالموت.. وإذا أصابه جرح أو حرق فإن ألمه يستمر بمقدار حياة الجلد؛ لأن أعصاب الإحساس موجودة تحت الجلد مباشرة.. لذلك عندما يحقن الإنسان بدواء لا يحس إلا ونصل الحقنة يخترق الجلد.. أى إنها لحظة بسيطة من الألم ثم بعد اختراق نصل الحقنة للحم لا يكون هناك ألم.. ولكن فى الآخرة فإن هذه الرحمة تنزع عن العاصين والكافرين من أهل النار.. فكلما احترقت جلودهم بدلهم الله جلودا جديدة ليستمر الإحساس بالعذاب ولا يتوقف أبدا ولا يخفف عنهم.. ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

ومن نعم الله فى الدنيا أن الإنسان تكون له كرامة وتكون له شخصية.. الناس كل الناس لهم احترامهم من الآخرين.. وكبراء القوم فى الدنيا لهم احترام أكثر.. فهم يمضون فى الحياة مرفوعي الرأس.. لهم الكبر ولا تلحق بهم إهانة وهم إذا تضايقوا من مكان استطاعوا أن يخرجوا منه إلى مكان آخر يجدون فيه الراحة.. فالإنسان فى الدنيا إذا تضايق من بلد استطاع أن يهاجر إلى بلد آخر.. وإذا تضايق من مكان يقيم فيه استطاع أن يذهب إلى مكان آخر في البلد نفسه أو المدينة نفسها.. أو أن يعيش في فندق بضعة أيام.. أو أن يقضي بعض الوقت في حديقة.. المهم أنه يستطيع أن يحصل على الراحة النفسية التي يتمناها.. فإذا جاءت الآخرة وكان من أهل جهنم فإنه لا يستطيع أن يغادر مكانه رغم العذاب الشديد. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٢٢ ﴾ [الحج].

وهكذا يعيش أهل جهنم والعياذ بالله في غم مستمر.. ويؤتي بالذين استكبروا

فيسحبون على وجوههم ويصب فوق رأسهم عذاب الحميم.. وتقول ملائكة جهنم: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان: ٤٩].

أي: يا من كنت عزيزا فى الدنيا أكرمك الله بالعز وبالمال.. فبدلاً من أن تشكره على نعمته كفرت بهذه النعمة فخذ جزاءك.. لذلك يأتي الجزاء ليس فقط بالعذاب والإيلام.. ولكن بالإهانة والذل.. والمعروف أن العنق والوجه هما علامة كرامة الإنسان.. فالإنسان الذي يرفع رأسه عزيز كريم.. ولذلك عندما تريد أن تعبر أنك ستهين إنساناً تقول: سآتي بأنفه الأرض.. ويقال: رغم أنفه.. أي رغم كبريائه ونفوذه فإنني سأفعل كذا وكذا.. والأنف هو أبرز مكان فى الوجه.. وتقول: سأحني رأسه فى التراب.. كل هذا من علامات الذل والإهانة.. يأتي الله سبحانه وتعالى بالكافرين الذين كانت رؤوسهم مرفوعة في كبرياء الكفر لتسحب أعناقهم بالسلاسل حتى تصل رؤوسهم إلى الأرض في جهنم.. علامة على الذلة والإهانة، وهذا نوع من العذاب النفسي.. وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ [غافر: ٧١].

على أن هناك من يتساءل إذا كان الإنسان لا يملك سيره ولا إرادة على جسده فلماذا هذه السلاسل؟ بينما الأمر يصير للجسد فيطيع بدون قدرة على العصيان.. نقول: إنها زيادة فى الإذلال أن يتم السحب بهذه السلاسل.. فلو أنه تم بدونها لكان ذلك أخف من الناحية النفسية، ولكن وجود السلاسل يزيد من الذل والمهانة التي يتعرض لها أولئك الذين كفروا فيكون هذا العرض أمام أهل النار وأهل الجنة.. لأن أهل الجنة يرون أهل النار وهم يعذبون.. وأهل النار يرون أهل الجنة وهم ينعمون.. وهذه زيادة فى الألم النفسي لأهل النار.. فهم يرون نعم الجنة فيعرفون أنه كان من الممكن أن يصبحوا من أهلها.. لو أنهم أطاعوا الله واتبعوا منهجه.. أما أهل الجنة فرؤيتهم لأهل النار زيادة في تنعيم وهم يرون الهول الأعظم الذي كانوا سيتعرضون له لولا رحمة الله وفضله وهداه.

على أن العذاب لا ينتهي عند المشاهد.. ولا عندما يصيح أهل النار طالبين من كبير ملائكة النار أن يطلب من الله أن يميتهم.. وفي ذلك يقول الحق: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ولابد أن نتنبه إلى أنهم لم يقولوا ليقض بيننا ربك.. بل قالوا ليقض علينا أي حتى نموت ونرتاح من هذا العذاب فيقول لهم مالك: لقد قضى الله ألا يقضي عليكم لترتاحوا بل أنتم ماكثون فى النار.. ويعيش أهل النار في غيظ أحمق وهم يعذبون فكل منهم عدو للآخر.. فيطلب المستضعفون منهم الذين كانوا يتبعون سادتهم وكبراءهم يطلبون من الله سبحانه وتعالى أن يضاعف لهم العذاب ويقولون: ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٨]

وهكذا تكون صدورهم تماما كبطونهم وجلودهم.. أما أولئك الذين كان لهم قرناء السوء فى الدنيا من الجن والإنس يزينون لهم المعصية ويدفعونهم إليها.. فإنهم يطلبون من الله سبحانه وتعالى أن يريهم هؤلاء القرناء: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

على أننا لابد أن نلتفت إلى أن هناك ألواناً كثيرة من العذاب في جهنم.. فهناك عذاب عام يشمل الجميع وهو النار.. وبجانب هذا العذاب هناك ألوان من العذاب الخاص الذي يتناسب مع جريمة كل واحد من أهل النار.. وقد روى رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا ألوانا من هذا العذاب عندما أسري به في ليلة الإسراء والمعراج.. فهناك الذين تقرض شفاههم بمقارض من حديد وهم ألسنة الفتنة.. وهناك الذين سيأكلون لحوماً منتنة لأنهم كانوا يغتابون الناس.. وهناك الذين سيسبحون في برك من الدم.. وهناك الزناة الذين تحرق النار فروجهم.. كل هذه الألوان من العذاب هي أنواع خاصة من العذاب تتم في جهنم.. فكأنما درجات العذاب تتفاوت كل حسب بشاعة عمله فى الدنيا.. ولكنهم جميعا سيعذبون بالنار وجميعا سيدخلون جهنم.. ولكل منهم زبانية لديهم ألوان من العذاب لا تعد ولا تحصى.. كل هؤلاء يتم تعذيبهم فى النار التي تتميز من الغيظ.. ذلك أننا لابد أن نعلم أن كل مخلوق لله مؤتمر بأمر الله.. عليه أن يتبع المنهج.. فإن لم يكن له اختيار نفذ أوامر الله بلا اختيار.. ولذلك عندما قال الحق للسموات والأرض: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

أي: لا نريد اختيارا، نريد أن نبقى مسخرين.. أما الإنسان فقد اختار أن يكون مختارا في تطبيق المنهج.. وكل ملتزم بمنهج الله فى الدنيا يكره غير الملتزم.. ولذلك عندما تكلمنا عن ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا إن الكون قد فرح بمولد الجماد والنبات والحيوان والمؤمن من الإنسان.. ذلك لأن منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم سيعيد انسجام الإنسان مع الوجود كله في طاعة الله.. والذي يجعل هذا مبتعدا عن أذهاننا وقد لا يفهمه البعض هو أننا نعتقد أنه لا يوجد إحساس في هذا الكون إلا للإنسان.. ولا حياة في هذا الكون إلا لحياة الإنسان، ولا إرادة في هذا الكون إلا إرادة الإنسان.. ولا يصل إلى أذهاننا أن تلك الأشياء التي نقول عنها إنها جماد أصم لها كل هذه المقومات.. وإذا كانت هذه هي الحقيقة.. لأن الحصى يسبح والجبال تسبح.. والأرض تسبح.. إذن كل هذا الكون الطائع يملؤه الغيظ من الإنسان الكافر وهو يريد أن ينتقم منه.. ولذلك فإن النار وهي خلق مسبح لله مملوء غيظاً من هؤلاء الكافرين وتتمنى لو يعذبون بها.. ولذلك إذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨].

فهذا تعبير عما تحس به النار تجاه الكفار.. وإذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

فمعنى ذلك أنها سعيدة في أداء مهمتها وهي إحراق الكافرين وتعذيبهم.. وهذا دليل على أن كل شيء مقهور لما خلقه الله له يحب مهمته.. وما دام يحب مهمته يكون سعيدا وهو يؤديها، وفي هذا نتأمل قول الحق سبحانه وتعالى في آل فرعون بعد إغراقهم: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ۝ ﴾ [الدخان].

كأن السماء والأرض التي تقول عنها جماداً لها انفعال وانفعال راقٍ وهو العاطفة التي ينشأ عنها الحزن والبكاء.

ومن عذاب أهل النار أنهم يعطون الأمل الكاذب.. ذلك أنه أكثر إيلاماً للنفس أن تأمل في شيء ثم تجده لا يتحقق.. ولذلك تأتينا الصورة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا ﴾ [الكهف: ٢٩].

حين يحس أهل النار بالعطش الشديد يستغيثون بالله طالبين الماء يقال لهم: ستغاثون فيفرحون ويستبشرون ويعتقدون أن الله سيعطيهم الماء الذي يخفف عنهم العذاب.. فإذا جاء الماء كانوا فرحين مسرورين.. فإذا بهم يجدونه ماء يغلي.. ومن شدة غليانه يحرق وجوههم قبل أن يصل أمعاءهم فيقطعها.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ [الكهف: ٢٩].

تماما حينما تريد أن تعذب سجينا.. يطلب منك الماء من شدة العطش فتأتي له بكوب من الماء.. وقبل أن تصل إليها يده تلقي ما في الكوب على الأرض.. هذا نوع من التعذيب.. كذلك هناك تعذيب آخر حينما يرى أهل النار الوهج الذي يخرج منها فيحسبونه ظلا.. فيطلبون أن يذهبوا إليه فيؤذن لهم فينطلقون.. ومعنى الانطلاق هنا الجري بلهفة.. وعندما يصلون إليه لا يجدونه ظلا.. فلا هو يحميهم من اللهب.. ولا هو يقدم أية حماية من العذاب.. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ۝ ﴾ [المرسلات].

ونحن نفهم أن الظل هو الذي يقي الإنسان من الحر الشديد.. والإنسان حين يجلس في الظل يحس بنسمة هواء لطيفة.. ولكن هذا ليس ظلاً.. وقول تعالى: ﴿ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾.

حين يقبل الإنسان على شيء يكون المواجه له ثلاث اتجاهات.. هي ما هو أمامه.. وما هو عن يمينه وما هو عن شماله.. فكأن هذه الاتجاهات الثلاثة التي يتجهون إليها ليس فيها أي نوع من الظل.. والشيء الذي نعرف أنه مظهر من مظاهر رحمة الله في الدنيا سيجده أهل النار مظهرا من مظاهر نقمة الله وعذابه.

ثم نأتي إلى عذاب آخر في قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: ٤١].

والمهاد هو الفراش، والغواش هو الغطاء.. إذا هم سيفترشون جهنم وستكون لهم فراشا وأكثر من ذلك ستكون لهم غطاء.. أى إن النار ستكون من فوقهم ومن تحتهم، والعذاب محيط بهم من كل جانب.. فلا يوجد شبر من أجسادهم لا يعذب.. فلا تقول مثلا: إن النار ستكون تحتهم تكوي ظهورهم بينما جباههم وجنوبهم مستريحة من العذاب.. بل العذاب يأتيهم من كل جانب.. لذلك يريد الله أن يرينا قسوة العذاب فى الآخرة.. وتكتمل الصورة بقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: ١٦].

وبذلك يعطينا الله سبحانه وتعالى كل أبعاد جسم الإنسان.. فأبعاد الجسم ستة.. هي الأمام والخلف واليمين والشمال وفوق وتحت.. فكأنما الجهات الست لجسم الإنسان محاطة بعذاب النار.. وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف: ٢٩].

والسرادق فى الآية هنا، هو الخيمة المحيطة بالإنسان من كل مكان فكأن عذاب النار في جهنم محيط بالكافرين والعصاة من كل مكان، وحين يحيط العذاب بأهل النار يطلبون فرصة أخرى يطلبون أن يعودوا إلى الدنيا، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧].

أي: أنهم طلبوا أن يعودوا إلى الدنيا مرة أخرى حتى يعملوا الصالحات ويطيعوا الله فيما أمرهم به.. ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم إن عادوا مرة أخرى فسيكفرون كما كفروا فى المرة الأولى.. ذلك أنهم إن عادوا للدنيا عاد لهم اختيارهم وعادت الشياطين لتغويهم وغرتهم سيطرتهم على جوارحهم.. وظنوا أنهم قادرون على أن يفلتوا من عذاب الله لذلك سيعودون إلى المعصية.

خروج العصاة من جهنم

ولكن كيف سيخرج العصاة من جهنم؟.. كيف سيزحزحون من العذاب؟ إذا دخل أهل الجنة الجنة.. ودخل أهل النار النار.. يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون متجهون إلى الله ويقولون: ربنا إخواننا في الدنيا قالوا: لا إله إلا الله كانوا يصومون معنا ويصلون فأدخلتهم النار بذنوبهم، فيقول الله: اذهبوا فأخرجوا من عرفتم منهم فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم فيخرجون فيقولون: أخرجنا من أمرتنا وما بقي فيها أحد نعرفه. فيقول الله: أخرجوا من كان في قلبه وزن دينار من إيمان فيخرجونهم، فيقول: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل فيخرجونهم فيلقون في نهر الحياة فينبتون من جديد[1].

---

(١) روى مسلم [١٨٣/ ٣٠٢] عن أبي سعيد الخدري؛ أن ناسا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم». قال: «هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيه سحاب؟» قالوا: لا. يا رسول الله! قال: «ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما. إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن: ليتبع كل أمة ما كانت تعبد. فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب، إلا يتساقطون في النار. حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر. وغبر أهل الكتاب. فيدعى اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير بن الله. فيقال: كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد. فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا. يا ربنا! فاسقنا. فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا. فيتساقطون في النار. ثم يدعى النصارى. فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح بن الله. فيقال لهم: كذبتم. ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد. فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فيقولون: عطشنا. يا ربنا! فاسقنا. قال فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار. حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها. قال: فما تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد. قالوا: يا ربنا! فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم. فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك. لا نشرك بالله شيئا - مرتين أو ثلاثا - حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب. فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم. فيكشف عن ساق. فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود. ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة. كلما أراد أن يسجد خر على قفاه. ثم يرفعون رؤوسهم، وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة. فقال: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا. ثم يضرب الجسر على جهنم. وتحل الشفاعة. ويقولون: اللهم! سلم سلم». قيل: يا رسول الله! وما الجسر؟ قال: «دحض مزلة. فيه خطاطيف وكلاليب وحسك. تكون بنجد فيها شويكة يقال لها=

وقد أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة فقال: «آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة رجل يخرج من النار حبوا يمشي مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة حتى إذا ما جاوزها قال: تبارك الذي نجاني منك. لقد أعطاني الله

= السعدان. فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاود الخيل والركاب. فناج مسلم. ومخدوش مرسل. ومكدوس في نار جهنم. حتى إذا خلص المؤمنين من النار، فوالذي نفسي بيده! ما منكم من أحد بأشد منا شدة لله، في استقصاء الحق، من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار. يقولون: ربنا! كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون. فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم. فتحرم صورهم على النار. فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه. ثم يقولون: ربنا! ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به. فيقول: ارجعوا. فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه. فيخرجون خلقا كثيرا. ثم يقولون: ربنا! لم نذر فيها أحدا ممن أمرتنا. ثم يقول: ارجعوا. فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه. فيخرجون خلقا كثيرا. ثم يقولون: ربنا! لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا. ثم يقول: ارجعوا. فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه. فيخرجون خلقا كثيرا. ثم يقولون: ربنا! لم نذر فيها خيرا».

وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

«فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون. ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط. قد عادوا حمما. فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة. فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل. ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر. ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر. وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟» فقالوا: يا رسول الله! كأنك كنت ترعى بالبادية. قال: «فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة. هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه. ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم. فيقولون: ربنا! أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين. فيقول: لكم عندي أفضل من هذا. فيقولون: يا ربنا! أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي. فلا أسخط عليكم بعده أبدا».

قال مسلم: قرأت على عيسى بن حماد زغبة المصري هذا الحديث في الشفاعة وقلت له: أحدث بهذا الحديث عنك؛ أنك سمعت من الليث بن سعد؟ فقال: نعم. قلت لعيسى بن حماد: أخبركم الليث بن سعد عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء ابن يسار، عن أبي سعيد الخدري؛ أنه قال: قلنا: يا رسول الله! أنرى ربنا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل تضارون في رؤية الشمس إذا كان يوم صحو؟» قلنا: لا. وسقت الحديث حتى انقضى آخره وهو نحو حديث حفص بن ميسرة. وزاد بعد قوله: بغير عمل عملوه ولا قدم قدموه «فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه». وفي البخاري [٦٥٦٠] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يقول الله: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حمما، فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، أو قال: حمية السيل، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية.

شيئاً ما أعطاه أحد من الأولين والآخرين. . ويظل ينتقل من منزلة إلى منزلة حتى يكون آخر أهل الجنة دخولا»[1].

أما أول أهل الجنة دخولا فهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والصالحون من أمته؛ لأنهم جاءوا على موعد فتنة فى الدنيا. . جاءوا في وقت تشتد فيه الفتن وجاءوا في وقت امتلأت فيه الدنيا بالزخارف، والقيامة تقوم عليهم بعدما تأخذ الأرض زخرفها. . فالذين يتبعون رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الظروف يكونون من أهل الجنة. . وهذا إكرام لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته.

❁ ❁ ❁

(١) روى مسلم [١٨٧/ ٣١٠] عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: آخر من يدخل الجنة رجل. فهو يمشي مرة ويكبو مرة. وتسفعه النار مرة. فإذا ما جاوزها التفت إليها. فقال: تبارك الذي نجاني منك. لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين. فترفع له شجرة. فيقول: أي رب! أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها. فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم! لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها. فيقول: لا. يا رب! ويعاهده أن لا يسأله غيرها. وربه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليها. فيدنيه منها. فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى. فيقول: أي رب! أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها. لا أسألك غيره. فيقول: يا ابن آدم! ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها. وربه يعذره؛ لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منها. فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين. فيقول: أي رب! أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها. لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم! ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى. يا رب! هذه لا أسألك غيرها. وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليها. فيدنيه منها. فإذا أدناه منها، فيسمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب! أدخلنيها. فيقول: يا ابن آدم! ما يصريني منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب! أتستهزئ مني وأنت رب العالمين». فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: «من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر».

obeikandl.com

أهل الجنة

على أننا قبل أن ننهي هذا الكتاب.. لابد أن نتحدث عن أهل الجنة.. ولا أحد يستطيع أن يصف ذلك النعيم الذي سيعيش فيه أهل الجنة.. لأن الجنة فيها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1].

فكل شيء فيها بقدرات الله سبحانه وتعالى.. واللغة عادة لابد أن يسبقها المعنى.. فلا توجد كلمة لشيء لا وجود له.. لأنه لابد أن تكون الصورة الذهنية موجودة أولاً.. ثم بعد ذلك توضع لها الكلمة.. وكل المخترعات العلمية الحديثة لم تكن موجودة في أي لغة من لغات العالم.. ولكن عندما وجد الاختراع اجتمع علماء اللغة ووضعوا له الاسم.. وحين تريد أن تعلم إنسانا لفظا جديدا لشيء لم يره.. فلابد أن تشبهه له لكي يفهم فتقول أنه مثل الكرة أو مثل الأسطوانه أو مثل الصندوق.. فمادام الشيء مجهولاً فلابد أن تشبهه بشيء معلوم حتى يستطيع العقل أن يستوعبه.. فإذا لم تشبهه بشيء معلوم عجز العقل عن فهمه.. ونعيم الجنة مجهول لدينا فنحن لا نعرف عنه شيئاً، ذلك أنه نعيم يفوق قدراتنا وتصوراتنا.. فهو بقدرة الله سبحانه وتعالى.. وذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يحدثنا عن الجنة.. ضرب لنا الأمثال بما هو موجود فى الدنيا.. هذه الأمثال هي للتقريب فقط.. ولكنها لا تعطينا الصورة الحقيقية.. ولذلك نجد فى القرآن الكريم دائماً يستخدم الحق جل جلاله كلمة ﴿ مَثَلُ ﴾

عندما يتحدث عن الجنة.. فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [محمد: ١٥].

أي: أنها ليست هي ولكنها مجرد مثل يضرب لتقريب المعنى.. ولذلك فكل ما ذكر فى القرآن الكريم عن الجنة لا يمثل حقيقة نعيمها لأن نعيمها فوق قدرات العقول البشرية ولكنه يقرب لنا هذا المعنى.. من دون أن يكون هو الحقيقة.. ولذلك ونحن نقرأ آيات الجنة فى القرآن الكريم لابد أن نعرف أن ما سنجده فيها هو أكبر كثيرا مما ذكر.

يقول الله في وصف الذين سيدخلون الجنة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [هود: ٢٣].

ومعنى أصحاب أنهم لا يفارقونها تماماً كما يحب الإنسان صاحبه.. فالجنة تطلبهم

---

(١) روى البخاري [٣٢٤٤]، ومسلم [٢٨٢٤/ ٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧].

كما يطلبونها وفيها نعيم الخلود والنعمة فيها لا تزول عن الإنسان ولا تفارقه ولا تبتعد عنه.. ولايفارقها هو بالموت فتزول عنه.. وهي حياة ليس فيها أغيار.. أي لا تكون فيها صحيحاً فتمرض.. ولا غنياً فتفقر.. فهذه الأغيار موجودة فى الدنيا حتى يلفتنا الله إلى أن النعمة منه فنشكره ولا ننسبها إلى أنفسنا وقدراتنا وعقولنا.. ونعم الجنة من الغزارة بحيث يأخذ الإنسان منها حاجته وما يزيد عن هذه الحاجة.. ولذلك فإنه إذا تمنى الإنسان شيئاً فى الجنة وجده أمامه بمجرد أن يرد على خاطره.. فلا يوجد غل ولا حقد بين أهل الجنة.. لأن كل ما يتمناه أي واحد منهم يجده أمامه.. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

أى إنهم متى دخلوا الجنة نعموا جميعاً بأكثر مما كانوا يتوقعون.. والصراع فى الدنيا والخلاف والغل يتم على أساس أن كل واحد يريد أن يستأثر بالنعم.. فهذا معه الحكم وهذا يريد أن يأخذه منه.. وهذا معه المال وهذا يريد أن ينتزع المال منه.. هذا التنافس على النعم لا وجود له فى الجنة.. لأن نعم الله تزيد عن حاجة عباده وكلما تمنوا شيئاً وجدوه.. كما أن الله سبحانه وتعالى يطهر نفوس أهل الجنة.. فإذا كان لك زوجة صالحة وكانت لا تعجبك منها أشياء طهرها الله سبحانه ونقاها مما لا يعجبك.. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥].

والزوجة الصالحة التي كان لا يعجبها في زوجها شيء يطهره الله منه.. ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى أزواج مطهرة ولم يقل أبناء وبنات مطهرون.. لأن الزوج والزوجة هما عماد الأسرة.. فإن صلحا صلح الأولاد.

ثم يقول الحق سبحانه في وصف الجنة: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾

ويقول سبحانه: ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ﴾

فما هو الفرق؟.. نقول: إن هناك فرقاً بين:

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ﴾.. و ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا ﴾.

نقول: إن النهر يجري من تحتي أى إن الماء يمر من تحتي.. ولكن منبعه ليس من عندي.. فقد يكون منبعه من مكان آخر ولكن ماؤه يجري تحتي.. ولكن القول: ﴿ مِن تَحْتِهِمُ ﴾..

أى إن الماء ينبع من تحتي ولا يتوقف عني أبدا.. وأن الجنة بقدرة الله سبحانه وتعالى هي بلا شواطئ.. يجري الماء هكذا بقدرة الله حافظاً نفسه.. وفي أنهار الدنيا لا تجد نهرا إلا وله شاطئان.. وهذان الشاطئان يمكنان بعض الناس من التحكم في مياه النهر لمنعها عن الآخرين.. ولكن بطلاقة قدرة الله فى الخلق لا توجد شواطئ لأنهار الجنة فلا أحد يستطيع أن يمنعها عن أحد.. والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن أنهار الجنة تجري من تحت قصور المؤمنين وتجري تحتها.. أى إن الماء يأتيهم من أماكن أخرى

وينبع أيضاً من المكان نفسه الذي سيدخلون فيه فى الجنة، وذلك زيادة فى النعيم. . وحينئذ يقول أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣].

والحمد يحمل هنا على الحب والمودة بين أهل الجنة جميعاً. . ونحن نقول الحمد لله فى الدنيا شكرا لله على نعمه. . ونقولها فى الآخرة لأن الشكر سيكون أكبر. . لأن الأشياء ستأتينا بمجرد أن ترد على خاطرنا. . ولأن نعم الله لا تعد ولا تحصى. . والحمد لله هنا أنه قد أنزل إلينا المنهج الذي علمنا به لنصل إلى هذا النعيم. . والذي أعاننا على طريق الإيمان. . والحمد لله الذي أرسل لنا رسله لتدلنا على الطريق.

ويدور حوار بين أهل الجنة وأهل النار. . ولقد نبأنا الله سبحانه وتعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ومعنى هذا أن أهل الجنة وأهل النار سيرون بعضهم البعض، وبينهما حجاب أو حاجز يمنع الاختلاط فلا يصل لهيب النار إلى الجنة. . ولا يصل نعيم الجنة إلى النار. . ولكن هؤلاء وهؤلاء يرون بعضهم البعض ويدور بينهم حوار. . والصالحون ينعمون. . والكافرون والعصاة يعذبون. . كل على مرأى من الآخر.

ويعطينا الله سبحانه وتعالى صورا للنعيم فى الجنة بالنسبة لكل النعم. . الطعام والشراب والملبس والنعيم النفسي الذي سيحدث. . فكما أن الكفار والعصاة سيعذبون عذابا بدنيا ونفسيا فى النار. . فإن المؤمنين سينعمون نعيما بدنيا ونفسيا. . فيقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإنسان].

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإنسان].

هذا بعض النعيم المادي. . أما النعيم النفسي فكفى به أنهم يرون الله ويأنسون بحديثه جل جلاله. . على أننا مهما قلنا بالنسبة لنعيم الجنة. . فلن نصل إلى تصوير دقيق له؛ لأن كل ما يخطر ومالا يخطر على قلوب البشر موجود ومتوفر وأكثر منه موجود ومتوفر. . وإن لحظة واحدة فى الجنة تساوي الدنيا وما فيها.

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى نهاية ذلك اليوم العظيم الذي سنراه جميعاً ونشهده. . وندعوا الله سبحانه وتعالى أن نكون في هذا اليوم من أهل الجنة. . وعسى أن تكون الصورة قد اقتربت من أذهاننا. . وندعوا الله أن يكون هذا الكتاب هاديا لكل من يقرؤه. . إنه سميع مجيب الدعاء.

obeikandi.com